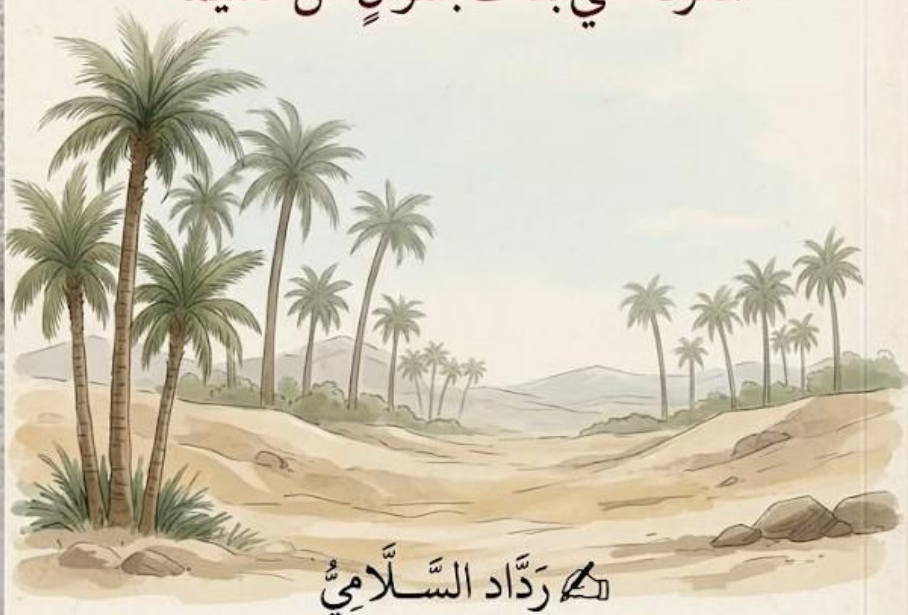


سُورَةُ الْاَنْفَالِ

حِينَ يُرِيّ الْوَحْيُ رِجَالَ النَّصْرِ

المعركة التي بدأت بسؤالٍ عن الغنيمة



رَدَّادُ السَّلَامِ

سورة الأنفال

حين يُرِيّ الوحيُّ رجالَ النصر

المعركة التي بدأت بسؤالٍ عن الغنيمة

رَدَّاد السَّلَامِي 

مقدمة تمهيدية

سورة الأنفال

حين يُرَبِّي الوحيُ رجالَ النصر

ليست سورة الأنفال حكاية معركة مضت، ولا سجلًا عسكريًا يحتفظ بأصداء بدر في ذاكرة التاريخ؛ إنها سورة تدخل إلى ما وراء المعركة، إلى ذلك الموضع الخفي الذي تُصنع فيه الانتصارات قبل أن تُرفع الرايات، وتُهزم فيه الجيوش قبل أن تتقابل الصفوف: إلى القلب.

ولعل من أعجب ما في السورة أن اسمها يقودك إلى الغنائم، بينما مضمونها يأخذك بعيدًا عنها؛ كأن الوحي يستقبل الإنسان عند الشيء الذي يشغله، ثم يرتقي به حتى يريه الشيء الذي ينبغي أن يشغله. تبدأ السورة بسؤال عن الأنفال: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ)،

لكن الجواب لا يغرق في تفصيل المال، بل يفاجئ القلوب بإعادتها إلى أصل القضية كلها: (قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ).

كأن السؤال كان عن الغنيمة، فجاء الجواب عن الإنسان.

وهنا يطلُّ المعنى الكبير للسورة: قبل أن يعلم الله المؤمنين كيف ينتصرون على عدوهم، علمهم كيف ينتصرون على أنفسهم.

فالغنيمة قد تكون أخطر على المنتصر من سيف المهزوم؛ لأن السيف يهاجم الجسد من الخارج، أما الدنيا فتدخل إلى القلب من الداخل. وقد ينجو جيش من سهام عدوه، ثم لا ينجو من سهم الطمع حين توضع المكاسب أمام عينيه. لذلك بدأت تربية بدر بعد انتهاء بدر تقريباً؛ بدأت عند اللحظة التي ظن الناس أن المعركة قد انتهت، ليكشف القرآن أن معركة أخرى قد ابتدأت: معركة الإنسان مع نصيبه، ومع أخيه، ومع نفسه.

ومن هنا نفهم لماذا تنتقل السورة على نحو مدهش بين ساحات تبدو متباعدة: الغنائم، وصف المؤمنين، والخروج إلى بدر، والاستغاثة، والنعاس، والمطر، والملائكة، والثبات، والطاعة، والخيانة، والإنفاق، وإعداد القوة، والسلم، والأسرى، والهجرة، والنصرة، والولاية، والرحم.

إنها ليست موضوعات متناثرة؛ إنها أجزاء إنسان واحد يريد الوحي أن يبينه.

فالقرآن هنا لا يصنع مقاتلاً فحسب، بل يصنع مؤمناً يحمل القوة ولا تحمله، ويملك المال ولا يملكه، وينتصر فلا يطغى،

ويستعد فلا يتوكل على استعدادة، ويصالح فلا يكون ساذجًا، ويحذر الخيانة فلا يخون، ويرى كثرة العدو فلا ينهار، ويرى قوته فلا يغتر.

ولهذا فإن بدرًا في سورة الأنفال أكبر من بدر الجغرافيا.
بدر هنا مختبر لليقين.

ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا يقفون أمام قوة تفوقهم في العدد والعتاد، وكل قوانين النظر المادي تقول إن الكفة ليست لهم. لكن القرآن كان يريد أن يعلم الجماعة الناشئة أن الحساب الذي يُدخل الله في المعادلة ليس هو الحساب الذي يستبعده منها.
لم يقل لهم: لا تأخذوا بالأسباب.

بل قال: خذوا بها كلها، ثم لا تعبدوها.

استعدوا: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)، ولكن تذكروا أن النصر ليس مولود السلاح وحده: (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ).

وهذه إحدى أعمق المعادلات التي تقيمها السورة في العقل المسلم: لا تناقض بين التوكل والإعداد، ولا بين اليقين والتخطيط، ولا بين الإيمان بالغيب وإحكام التعامل مع الواقع.

المؤمن لا يلقي سلاحه باسم التوكل، ولا يتخذ سلاحه إلهاً باسم الواقعة.

إنه يبذل ما يستطيع، ثم يعرف أن فوق استطاعته قدرة لا يحدثها شيء.

ولهذا تمتلئ السورة بحضور الله في التفاصيل الدقيقة للمعركة: هذا نعاس ينزل على العيون، وهذا مطر ينزل من السماء، وهذه أقدام يثبّت بها الرمل، وهذه قلوب يربط عليها، وهذه أعداد تُرى على غير حقيقتها لحكمة، وهذه ملائكة تُمدُّ بها الصفوف، وهذه تدابير بشرية تجري داخل تدبير أعلى منها.

فإذا الإنسان المؤمن يعمل بكل ما أوتي، وفي الوقت نفسه يرى يد العناية فوق الأسباب ومن ورائها.

وهذه الرؤية لا تُنشئ إنساناً كسولاً، بل تحرره من عبودية النتائج.

إنه مسؤول عن صدقه، وعن طاعته، وعن ثباته، وعن إعداده، أما النتيجة فليست إلهه.

ومن هنا يأتي ذلك التعبير القرآني المزلزل بعد المعركة: (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى).

لم يُلغِ القرآنُ فعلَ الإنسان؛ قال: (إِذْ رَمَيْتَ)، فأثبت الرمية، ثم ردَّ أثرها الذي تجاوز قدرة الإنسان إلى الله: (وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى).

وهكذا يُربِّي القرآن الإنسان على أن يعمل دون غرور، وينجح دون أن ينسب الكون إلى نفسه.

ولذلك كانت بدر أيضاً معركةً مع وهم العدد.

فالعدد حقيقة، لكنه ليس الحقيقة كلها.

والقوة حقيقة، لكنها ليست الحقيقة كلها.

والسلاح حقيقة، لكنه ليس الحقيقة كلها.

ثمة شيء لا يظهر في جداول الإحصاء: قلب امتلأ بالله.

ولهذا تكرر في السورة خطاب الثبات والطاعة والذكر والصبر؛ لأن انهيار الإنسان من داخله قد يجعل كثرة السلاح عبئاً لا قوة. وما أكثر أمماً امتلكت أدوات القوة وفقدت روحها، فإذا معداتها كثيرة وقرارها هشّ، وإذا أبنيتها شاهقة وإرادتها خاوية.

وتكشف سورة الأنفال سرّاً آخر من أسرار القوة يغفل عنه كثيرون: أن إصلاح العلاقة بين المؤمنين جزء من إعداد القوة.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ).

ما أعجب أن يأتي إصلاح ذات البين في سورة القتال! لكن العجب يزول حين نفهم أن الصف الذي تمزقه الأحقاد لا يحتاج عدوه إلى كثير عناء ليهزمه. الجبهة الداخلية ليست أقل أهمية من جبهة الميدان؛ ولذلك ربطت السورة القوة بالأخوة، والطاعة بوحدة الصف، والتنازع بذهاب الريح:

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ).

إنها قاعدة تتجاوز بدرًا إلى كل جماعة، وكل أمة، وكل مشروع.

حين يأكل الناس بعضهم بعضًا من الداخل، لا يحتاج الخارج إلا إلى الانتظار.

ومع كل حديث السورة عن الحرب والقوة، فإنها لا تصنع إنسانًا مولعًا بالدم؛ بل تضع القوة داخل منظومة أخلاقية صارمة. تأمر بالإعداد، ثم تقول:

(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا).

وتحذر من الخيانة، لكنها لا تبيح الخيانة في مواجهتها: (فَأَنْبِذُوا إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ).

وكان الرسالة تقول: لا تسمح لفساد خصمك أن يفسدك.

قد تحارب الخائن، ولكن لا تصبح خائناً.

وقد تقاوم الظلم، ولكن لا تجعل مقاومة الظلم باباً إلى ظلم جديد.

فالقيمة الأخلاقية في الإسلام لا تسقط عند اشتداد الصراع؛ بل هناك يظهر معدنها الحقيقي.

ثم تبلغ التربية واحدة من أدق لحظاتها عند الأسرى، حين تدخل الدنيا مرة أخرى إلى المشهد. وكان السورة التي بدأت بالأنفال تعود قرب نهايتها لتسأل القلوب السؤال نفسه بصورة أخرى: ماذا يحدث لكم حين يصبح النصر قابلاً للتحويل إلى مكسب؟

وهكذا يمتد خيط خفي من أول السورة إلى آخرها: تحرير القلب من أن يجعل الدنيا ثمرة الرسالة.

فالرسالة ليست طريقاً إلى الغنيمة، والغنيمة إن جاءت فهي شيء يقع في الطريق، لا شيء يُعبد في نهاية الطريق.

ثم تختتم السورة ببناء مجتمع العقيدة: مهاجرون، وأنصار، وإيواء، ونصرة، وولاية، وأرحام. فبعد أن بنت الفرد في المعركة، بنت الجماعة التي تحمل ما بعد المعركة.

وهنا تكتمل الصورة.

لقد بدأت السورة بسؤال: لمن الغنيمة؟

وانتهت بسؤال أعمق: لمن ولاؤك؟

وبين السؤالين يُعاد تشكيل الإنسان كله.

ولهذا فإن الدخول إلى سورة الأنفال ينبغي ألا يكون دخول قارئ يبحث عن أخبار بدر فحسب، بل دخول إنسان مستعد لأن يرى بدره الخاصة.

ففي داخل كل واحد منا غنيمة قد تفتنه، وخوف قد يثبطه، وشيطان يزيّن له، وسبب قد يغريه بالاتكال عليه، وعدد قد يخيفه، ومصلحة قد تنازع مبدئه، وعلاقة تحتاج إلى إصلاح، وعهد يحتاج إلى وفاء، ومعركة بين ما يريده الله وما تريده النفس.

وبدر الكبرى لا تبدأ حين يلتقي جيشان.

إنها تبدأ حين يقف الإنسان أمام نفسه ويسأل: من يقودني؟

الوحي أم الهوى؟

اليقين أم الحساب المجرد؟

المبدأ أم الغنيمة؟

فإذا حُسمت هذه المعركة في القلب، هان بعد ذلك كثير من معارك الطريق.

ومن هنا تبدأ رحلتنا مع سورة الأنفال؛ لا لنستعيد معركةً انتهت، بل لنكتشف كيف يصنع الوحي الإنسان الذي يستحق النصر؛ الإنسان الذي إذا مُكِّن لم يطع، وإذا أُعطي لم يتنازع، وإذا خاف لم ينهزم، وإذا استعد لم يغتر، وإذا انتصر انحنى قلبه لله.

فتلك، قبل كل شيء، هي قصة الأنفال: ليست قصة قومٍ تعلّموا كيف ينتصرون فحسب، بل قصة وحيٍّ علّم المنتصرين كيف يبقون عبيدًا لله بعد النصر.

بداية غير متوقعة

تبدأ السورة من حيث لا نتوقع أن تبدأ سورة نزلت في أعقاب انتصار عظيم: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ).

لم تبدأ بوصف جيش قريش، ولا بعدد الملائكة، ولا ببطولة المقاتلين، ولا بمشهد فرار المشركين. بدأت بسؤالٍ عن المال الذي بقي في أرض المعركة. وهنا أول مكاشفة.

فالإنسان قد ينجو من الخوف، ثم لا ينجو من نصيبه بعد زوال الخوف. وقد يثبت أمام السيف، ثم تضطرب نفسه أمام الغنيمة. وفي ساعة الخطر تتجمع القلوب على مقصد واحد، فإذا انقشع الغبار ظهرت الحظوظ الصغيرة التي كانت كامنة في زوايا النفوس.

جاء النصر كبيراً، لكن الوحي لم يسمح لهيبته أن تستر خللاً صغيراً في القلوب. فالرسالة لا تبني رجالاً ينتصرون فحسب؛ بل تبني رجالاً لا يفسدهم النصر.

(قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ).

بهذه الجملة انتزع المال أولاً من النفوس قبل أن يُوزَّع في الأيدي. لم يقل: هي لفلان دون فلان، بل أعادها إلى الجهة التي منها جاء النصر كله: إلى الله وحكم رسوله ﷺ.

كأن السورة تقول لهم: قبل أن تسألوا ماذا أخذتم من بدر، اسألوا ماذا صنعت بدر فيكم. وقبل أن تتنازعوا آثار النصر، تذكروا أنكم لم تصنعوا النصر مستقلين عن الله. لقد خرجتم قليلين، خائفين، مترددين، ثم عاد إليكم ما لم تكن حساباتكم البشرية تعدكم به.

وما أكثر ما تخسر الجماعات بعد انتصارها ما لم تخسره في معركتها! تهزم عدوها في الميدان، ثم يهزمها التنافس في الداخل. تعبر الخطر متماسكة، ثم تتشقق عند اقتسام الثمرة. ولهذا جاءت الأنفال لتمنع النصر الخارجي من أن يتحول إلى هزيمة داخلية.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ).

إنها ثلاثة أسوار تحمي كل نصر: تقوى تضبط سرائر النفوس، وإصلاح يحفظ وحدة الصف، وطاعة تمنع الأهواء من التنازع على القيادة.

ولاحظ أن السورة لم تقل: أصلحوا بينكم فحسب، بل قالت: (ذَاتَ بَيْنَكُمْ)؛ أي أصلحوا تلك المساحة الخفية التي تسكن بين القلوب: الظنون، والحساسيات، والمنافسات، والكلمات التي تُحفظ في الصدور، والحقوق التي يراها كل طرف لنفسه. فالعلاقات لا تنهار دائماً بسبب القضايا الكبرى؛ قد تنهار بسبب تراكم أشياء صغيرة لم تجد من يطهرها بالتقوى والإنصاف.

ثم يأتي الشرط المزلزل: (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ).

ليس المعنى نفي الإيمان عنهم، وإنما استدعاء مقتضاه: إن كان الإيمان حقيقةً في القلب، فلا بد أن يظهر أثره حين تتعارض رغبة النفس مع حكم الله. فالإيمان الذي يعمل في أوقات الخوف ينبغي أن يعمل كذلك في أوقات المكاسب. وقد يسهل على الإنسان أن يهتف بالمبدأ حين لا يدفع ثمنًا، لكن حقيقته تظهر حين يُطلب منه أن يتنازل عن حظٍّ يراه حقًا له؛ صيانةً للأخوة وطاعةً لله.

ومن هنا ندرك أن بدرًا لم تكن امتحانًا للمشركين وحدهم. كانت امتحانًا للمؤمنين أيضًا: امتحانًا لهم قبل المعركة بالخوف، وفي أثنائها بالثبات، وبعدها بالغنيمة.

وكل مرحلة لها فتنتها.

الخوف يختبر اليقين.

والقتال يختبر الثبات.

والنصر يختبر الإخلاص.

ولعل امتحان ما بعد النصر أشد خفاءً؛ لأن الإنسان في الهزيمة منكسر يستشعر فقره، أما في النصر فقد تتسلل إلى نفسه دعوى الاستحقاق، وينسى أن يداً من اللطف الإلهي كانت تدبر ما وراء الأسباب.

ولهذا لم تترك السورة المؤمنين طويلاً عند سؤال المال، بل نقلتهم فوراً إلى سؤال القلب: **(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ).**

كانوا يسألون عن الأنفال، فأجابهم الوحي بصفات المؤمنين. وكان المسألة ليست: من يأخذ؟ بل: من أنتم حين تأخذون؟ وما حال قلوبكم أمام الله؟ وهل بقيت فيها تلك الرعشة المقدسة التي تمنعها من الاستطالة بالنصر والتعلق بالغنيمة؟

إن المؤمن الحق لا يحملته النصر على الانتفاخ، بل يرده إلى الوجل. لأنه كلما رأى آثار القدرة الإلهية أدرك فقره أكثر، وعلم أن ما وقع لم يكن ثمرة عضلاته وحدها، ولا ذكائه وحده، ولا حسن تدبيره وحده.

(وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا).

فالقرآن لا يمر على قلوبهم مرور الخبر، بل يدخلها فيعيد ترتيب رؤيتها للعالم. كل آية توسع في القلب مساحة اليقين، وتنزع منه حجرًا من أحجار الوهم، حتى يصبح ما عند الله أرسخ في النفس مما تراه العين.

(وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).

وهنا تضع السورة البذرة الكبرى التي ستفسر بدرًا كلها: التوكل.

ليس التوكل تركًا للأسباب؛ فقد خرجوا، واستعدوا، ونظموا الصفوف، واختاروا المواقع. لكنه تحرير القلب من عبودية الأسباب. أن تحمل السلاح دون أن تعتقد أن الحديد ينصر بذاته، وأن تُحكم الخطة دون أن تتوهم أن الذكاء يستقل بصناعة المصير.

الأسباب أدوات، ولكن الأمر لله.

وهكذا يبدأ بناء الإنسان البشري: قلبٌ يوجل، وإيمانٌ ينمو، وروحٌ تتوكل، وجوارح تقيم الصلاة، ويدٌ تنفق مما رزقها الله. فلا تنفصل حرارة المعركة عن خشوع المحراب، ولا قوة

الميدان عن رحمة البذل: (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا).

إنها كلمة ثقيلة : (حَقًّا).

كان الإيمان لا يبلغ تمام صدقه بكثرة الدعوى، بل حين تتماسك عناصره في الإنسان: قلب يتأثر، وعقل يزداد يقيناً، ونفس تتوكل، وجسد يصلي، ومال يتحرر من الشح.

فإذا اكتمل هذا البناء، لم يعد المؤمن يطلب النصر ليعلو بنفسه، بل ليعلو الحق. ولم تعد الغنيمة غايةً، بل عَرَضًا يمر به دون أن يستوطن قلبه.

منذ مطلعها تعلن سورة الأنفال أن أول ميادين النصر ليس الأرض التي يقف عليها العدو، بل القلب الذي تقف فيه رغبات النفس. وأن الجماعة التي لا تنتصر على التنازع داخلها لن يحميها طويلاً انتصارها على خصومها.

لقد بدأت بدر في الخارج مواجهةً بين جيشين، لكن السورة أعادتها إلى موضعها الأعرق:

كانت بدر معركةً لتحرير الإنسان من خوف القوة، ثم جاءت الأنفال لتحرره من فتنة الغنيمة؛ لأن الذي يخاف غير الله لا

يحمل الرسالة، والذي تعبده حصته من النصر لا يؤتمن على
ثمرته.

الفصل الأول

حين خرج المؤمنون إلى غير ما يريدون

بعد أن أصلحت السورة ما نشأ حول الغنائم، أعادت المؤمنين إلى بداية الرحلة؛ إلى اللحظة التي سبقت بدرًا، حين لم يكن النصر قد ظهر، ولم تكن الغنائم قد وُجدت، ولم يكن في الأفق إلا طريق غامض تمضي فيه القلوب بين الوعد والخوف: (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ).

تقول الآية: (أَخْرَجَكَ رَبُّكَ).

لم تقل: خرجت، مع أن النبي ﷺ خرج بقدميه، واستشار أصحابه، ورتب أمره؛ لأن الحركة الظاهرة كانت تجري داخل تدبير أكبر. كانت الأقدام تمشي في صحراء بدر، لكن العناية الإلهية هي التي تقود الطريق إلى الغاية التي لم تكن النفوس قد رأتها بعد.

وهذه من أعمق حقائق القدر: أن الله قد يُخرج الإنسان من مألوفه إلى ما يكرهه، لا ليضيّعه، بل ليبليّغه موضعًا من الخير لم يكن ليبليّغه لو تُرك لاختياره الأول.

فالمرء يرى أول الطريق، والله يعلم آخره. يرى مشقة اللحظة، ولا يرى الثمرة المختبئة وراءها. وقد يظن أن النجاة في البقاء، ويكون تمام نجاته في الخروج. وقد يطلب غيراً يسيرة، بينما يريد الله أن يفتح له صفحةً جديدة في التاريخ.

كان المسلمون قد خرجوا يريدون قافلة قريش؛ هدفاً محدوداً، وخطرًا أقل، ومكسباً قريباً. ثم نجت القافلة وأقبل الجيش. وهنا تبدل المشهد: لم يعد الأمر تعرّضاً لغير، بل مواجهة لقوة قريش التي خرجت بكبريائها وسلاحها ورجالها.

(يَجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ).

السورة صادقة في عرض التجربة الإنسانية. لم ترسم الصحابة ككائنات لا تعرف الخوف، ولم تحذف من المشهد ترددهم الفطري. كانوا مؤمنين، ولكنهم بشر؛ فاجأتهم المواجهة، ورأوا تفاوت العدد والعدة، وشعروا بثقل ما ينتظرهم.

وذلك لا ينقص من قدرهم، بل يكشف عظمة انتقالهم: فالشجاعة ليست غياب الخوف، وإنما ألا يكون الخوف هو صاحب القرار الأخير.

إن النص القرآني لا يصنع بطولاً أسطورية منفصلة عن طبيعة الإنسان. إنه يرينا القلوب وهي ترتجف، ثم يرينا الإيمان وهو يأخذ بيدها حتى تثبت. وهنا يكمن جمال التربية القرآنية: لا تشترط أن يدخل الإنسان الطريق بلا ضعف، ولكنها لا تسمح له أن يجعل ضعفه قائداً للطريق.

(وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ).

إنها المكاشفة الثانية: (وَتَوَدُّونَ).

أنتم تريدون الطريق الأخف، والطائفة الأقل خطراً، والنصر الذي لا يكلف كثيراً. وهذه رغبة بشرية مفهومة؛ فالنفوس تميل إلى المكسب المضمون وتكره الطريق المحاط بالأشواك.

لكن إرادة الله كانت تنقلهم من طلب الغنيمة إلى صناعة التاريخ: **(وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ).**

بين إرادة المؤمنين وإرادة الله مسافة تربوية عظيمة.

كانوا يريدون مال القافلة، وكان الله يريد إسقاط هيبة قريش.

كانوا يريدون مكسباً سريعاً، وكان الله يريد تثبيت دولة الرسالة.

كانوا ينظرون إلى ما تحمله العير، وكان الله ينظر إلى ما سيحمله يوم بدر للأجيال.

كان اختيارهم يجيب عن حاجة الساعة، أما اختيار الله فكان يفتح مستقبل الأمة.

وكثير من التحولات الكبرى في حياة الإنسان تبدأ بهذه المفارقة: يريد شيئاً قريباً صغيراً، فيصرفه الله عنه، ثم يقوده عبر القلق والمشقة إلى شيء أوسع. لكنه لا يدرك حكمة المنع عند وقوعه؛ لأن البذرة لا تُظهر للعين هيئة الشجرة.

لقد نجت القافلة، ولعل بعض النفوس ظنت أن الفرصة ضاعت. ولكن الذي ضاع كان ربحاً تجارياً، والذي جاء كان يوم الفرقان.

وكم من قافلةٍ فانت الإنسان فحزن عليها، وهي في علم الله لم تكن إلا حجاباً يحجبه عن بدره؛ عن الموعد الذي سيكشف له معدن قلبه، ويغير موضعه في الحياة، ويخرجه من هامش الوجود إلى قلب الرسالة.

ليس كل ما فات خسارة، ولا كل ما حضر نعمة. القيمة ليست فيما تظفر به يدك عاجلاً، بل فيما يصنعه القدر بروحك ومصيرك.

(لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ).

هنا يرتفع مقصد المعركة فوق الأفراد والغنائم. إنها ليست خصومةً على مورد، ولا ثأراً قُبَلِيًّا، ولا انفجاراً لرغبة بشرية في السيطرة. إنها لحظة يواجه فيها الحق قوةً تحاول خنقه ومنع الناس من سماعه.

والباطل لا يبطل لمجرد أنه باطل. فقد يمتلك السلاح، والإعلام، والمال، والزعامة، والتاريخ الموروث. وقد يبدو راسخاً حتى يظنه الناس جزءاً من طبيعة الحياة. لكنه يحمل في داخله عنصر فناء؛ لأنه لا يملك حقيقةً تسنده، وإنما يستمد بقاءه من خوف الناس منه واستسلامهم له.

أما الحق فقد يبدأ ضعيف الأدوات، مطارِد الأنصار، محدود المكان؛ لكن قوته كامنة في مطابقته لأمر الله وفطرة الإنسان. فإذا وجد رجالاً يؤدون حقه من الصدق والثبات، بدأ الباطل يفقد هيئته قبل أن يفقد مواقعه.

ولهذا لم يكن نصر بدر مجرد سقوط عدد من صناديد قريش، بل سقوط الصورة المتضخمة التي صنعتها قريش لنفسها في الوعي العربي.

لقد تبين أن القوة التي أخافت الناس سنوات يمكن أن تنكسر، وأن الجماعة القليلة إذا استقامت على الحق ليست رقمًا مهملاً في حساب التاريخ.

الدعاء الذي سبق المدد

ثم تنقلنا السورة إلى مشهد آخر؛ مشهد لا يسمع فيه صليل السيوف، بل يسمع افتقار القلوب: **(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ).**

قبل أن يكون بدر يوم قتال، كان ليلة دعاء.

رفع النبي ﷺ يديه إلى ربه، يناشده وعده، حتى سقط رداؤه عن منكبيه. وفي هذا المشهد تتكشف حقيقة النبوة في علاقتها بالنصر: لم يكن النبي ﷺ متكئاً إلى منزلته، ولا مغترّاً بصحة قضيته، بل كان في غاية الافتقار إلى الله.

فالحق لا يستغني عن الدعاء لأنه حق. وصحة الطريق لا تعني أن صاحبه مستغن عن المدد. بل كلما عظم التكليف اشتدت العبودية، وكلما اقترب الموعد ازداد القلب التجاءً إلى صاحبه.

والاستغاثة ليست كلمةً يقولها اللسان وهو مطمئن إلى قوته؛ إنها سقوط الاعتماد على النفس. لحظة يدرك فيها الإنسان أن

الأسباب التي جمعها قد بلغت منتهاها، وأن وراءها بابًا لا يفتحه إلا الله.

ولم يقل سبحانه: إذ استغاث نبيكم، مع أن دعاءه ﷺ كان أعظم الدعاء، بل قال: (تَسْتَعِيْثُونَ). فقد كانت الجماعة كلها في حالة افتقار. وإذا توحدت القلوب على الله قبل أن تتوحد الصفوف في الميدان، نزل عليها من السكينة ما يجعل القلة أكثر ثباتًا من الكثرة.

(فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ).

جاء المدد من عالم لا تراه الأبصار. وكأن السورة توسع رؤية المؤمن للوجود: لستم وحدكم في هذه الأرض، وليست المعركة محصورةً فيما تقع عليه أعينكم. هناك جنود الله لا تعلمونها، وهناك تدبير يجري فوق مستوى الحساب المرئي.

لكن القرآن، وهو يذكر الملائكة، يحرس القلب من التعلق بهم: **(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ).**

حتى الملائكة ليست مصدر النصر استقلالًا. إنها جند من جنود الله، وآية من آيات تأييده. أما النصر فمن عنده وحده.

وهذه الآية تهدم كل صنم سببيّ قد ينشأ في القلب. فحين يهب الله لك سبباً قوياً، لا يسمح لك أن تنتقل إليه مقام التوكل. قد تكون القوة بشراً، أو مالاً، أو سلاحاً، أو علماً، أو خطة، أو أنصاراً؛ لكنها تظل بشرى ووسيلة، لا ربّاً صغيراً تتعلق به النفس.

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ).

ليست هذه جملةً تعطل التخطيط، بل جملة تحرره من الغرور. فالمؤمن يبذل أقصى ما يستطيع، ثم لا يعبد ما بذل. يحسن التدبير، لكنه يعلم أن التدبير قد يضل طريقه إن لم يأذن الله. يجمع القوة، لكنه يعرف أن القوة قد تكون ثقيلاً لا تتحرك، وأن القلة قد تصبح إحصاراً حين يضع الله فيها بركته.

وهكذا التقى في بدر عالمان:

عالم الأرض، وفيه رجال قليلون، وسيوف محدودة، وقلوب تعرف الخوف.

وعالم الغيب، وفيه وعد الله، ومدد الملائكة، وتدبير العزيز الحكيم.

وبين العالمين وقف الدعاء جسراً.

فما أضعف الإنسان حين يرى نفسه وحده، وما أقواه حين يرى نفسه عبدًا لله! لأن العبد لا يستمد قدرته من حجمه، بل من الجهة التي احتوى بها.

لقد أخرجهم الله إلى غير ما أرادوا، ثم أعطاهم فوق ما كانوا يرجون. ضاق اختيارهم عن رؤية الحكمة، فانسع لهم اختيار الله حتى صار خوفهم نصرًا، وفوات القافلة فتحًا، وقلة العدد آيةً تتلى إلى يوم القيامة.

كانت بدر تقول للمؤمنين: قد لا يكون الخير في الطريق الذي اخترتموه، بل في الطريق الذي ساقكم الله إليه؛ فإن ضاقت عليكم بدايته، فاصبروا حتى يتكلم آخره.

الفصل الثاني السكينة التي نزلت قبل النصر

لم يبدأ الإمداد الإلهي في بدر من حركة السيوف، بل من أعماق النفس. كان الخوف يسري في القلوب، والإعياء يثقل الأجساد، والشيطان يجد في الظرف القلق منفذًا للوسوسة؛ فجاءت العناية تعالج الإنسان من داخله قبل أن تعينه على ما حوله: (إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ).

النعاس في ساعة الخطر أمر عجيب؛ لأن الخائف عادةً تستيقظ فيه كل الحواس، ويقف ذهنه على حافة القلق مترقبًا. لكن الله ألقى عليهم نعاسًا لم يكن غفلةً عن العدو، بل تحريرًا من استنزاف الخوف.

كانت أجسادهم تحتاج إلى الراحة، وقلوبهم تحتاج إلى علامة تقول لها: إن الأمر ليس منفلتًا، وإن الذي يرعاكم لا يغفل. (أَمَنَةً مِنْهُ).

أما جاء في صورة نعاس خفيف. لم يتغير عددهم، ولم تختفِ قریش من أمامهم، ولم تتحول سيوفهم إلى سيوف أخرى؛ لكن شيئًا تبدل في الداخل. هدأت الجلبة التي تصنعها المخاوف حين تتكاثر في النفس، واسترد القلب قدرته على النظر.

فالسكينة لا تعني دائماً أن يرفع الله الخطر من حولك، بل قد تعني أن يرفع سلطانه من داخلك. يبقى البحر مضطرباً، لكن السفينة تستعيد توازنها. ويبقى الواقع شديداً، لكن القلب لا يعود أسيراً لشدته.

وقد يكون هذا أول النصر: أن تُنتزع من العدو قدرته على هزيمتك في خيالك قبل أن تواجهه في الميدان.

إن كثيراً من المعارك تُحسم في داخل الإنسان أولاً. فإذا تضخم الخصم في وعيه، دخل المواجهة مهزوماً وإن حمل السلاح. وإذا امتلأ القلب بالله، رأى القوة بحجمها الحقيقي؛ قوة مخلوقة محدودة، لا تملك أن تتجاوز ما أذن به رب العالمين.

الماء الذي طهر الأجساد والقلوب

ثم جاء الغيث: **(وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ).**

كان ماءً واحداً، لكنه أدى وظائف كثيرة: طهر الأبدان، وأطفأ وساوس الشيطان، وربط القلوب، وثبت الأرض تحت الأقدام.

وهنا نرى كيف يعمل اللطف الإلهي: قد تنزل النعمة في صورة مادية بسيطة، بينما تمتد آثارها إلى النفس والروح والميدان. قطرة المطر لا تعرف في ظاهرها شيئاً عن الخوف، لكنها حين تأتي بأمر الله تصبح جواباً عن سؤال القلب، وراحة للجسد، وسلاحاً في المعركة.

لم ينزل عليهم ذهباً، ولا سيوفاً جديدة، بل أنزل ماءً. لأن العناية لا تأتي دائماً في الصورة التي يتوقعها الإنسان. قد يطلب قوة ظاهرة، فيرسل الله إليه طمأنينة. وقد ينتظر انقلاباً كبيراً، فيفتح له باباً صغيراً يكون وراءه التحول كله.

(وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ).

تعبير بالغ القوة؛ فكأن القلب في أوقات المحنة شيء تتنازعه الرياح، ويحتاج إلى رباط يمنعه من التصدع. وليس الربط إلغاءً للمشاعر البشرية، وإنما جمعٌ لها بعد تشتتها، وتوجيهٌ لها بعد اضطرابها، حتى تستقر كلها عند معنى واحد: أن الله حاضر بعلمه وقدرته وتدبيره.

كم يحتاج الإنسان إلى هذا الربط حين تتزاحم الاحتمالات في رأسه! حين يتوزع بين ما يخشاه، وما يرجوه، وما يتوقعه، وما لا يستطيع تفسيره. عندئذ لا تكمن النجاة في امتلاك إجابة

تفصيلية عن كل سؤال، بل في أن يستقر أصل واحد في القلب:
لن يخرج الأمر من سلطان الله.

فإذا استقر هذا الأصل، عادت الأسئلة إلى أحجامها، وأصبح
المجهول قابلاً للاحتمال، وصار الطريق - وإن لم تتضح نهايته
- ممكناً للسير.

ثم قال: (وَيُثَبِّتْ بِهِ الْأَقْدَامَ).

اجتمع تثبيت الباطن وتثبيت الظاهر: ربط القلوب، وثبات
الأقدام. فالثبات الجسدي ثمرة لثبات أعماق. والقدم لا تقف
طويلاً إذا انهار القلب الذي يقودها.

إن القرآن لا يفصل بين النفس والميدان، ولا بين الإيمان
والواقع. الماء يطهر، والأرض تتماسك، والقلوب تطمئن،
والصفوف تثبت. كلها أجزاء من تدبير واحد.

وهنا تظهر دقة التربية الإلهية: لم يكلفوا بالثبات ثم يتركوا
وحدهم يصارعون ضعفهم، بل سبقتهم أسباب التثبيت. فالله حين
يأمر عباده بأمر يفتح لهم من معونته ما يمكنهم من القيام به؛
لكن عليهم أن يستقبلوا المعونة بالصدق، وأن يخطوا بأقدامهم
بعد أن يربط هو على قلوبهم.

الضربة التي تسبقها الطمأنينة

(إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا).

تتكرر قضية التثبيت؛ لأنها قلب المعركة. فالنصر ليس دائماً أن تصبح أقوى من خصمك في العدد، بل قد يكون أن تصبح أثبت منه عند اللحظة الفاصلة.

قد يمتلك الطرف الآخر أدوات أكثر، لكنه لا يمتلك قلباً يعرف لماذا يقاتل. وقد تزدهم صفوفه بالرجال، لكن أرواحهم متفرقة بين الكبر والمصلحة والخوف من الفضيحة. أما المؤمن فإذا وضح له المقصد واستقر فيه اليقين، فقد يتحول ثباته إلى قوة لا تقاس بعدد السيوف.

(سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ).

كما ألقى الله الأمن في قلوب المؤمنين، ألقى الرعب في قلوب خصومهم. الخارج متقارب: هؤلاء بشر وهؤلاء بشر، وهذه سيوف وتلك سيوف. لكن العالم الداخلي مختلف: قلوب مربوطة، وقلوب مرعوبة.

وهذا يكشف أن الميدان المرئي ليس كل الميدان. فثمة معركة خفية تجري في الصدور: سكينة هنا، ورعب هناك؛ يقين هنا،

وتصدع هناك. وما يقع بعد ذلك على الأرض ليس إلا ظهوراً لما جرى أولاً في الأعماق.

ثم يأتي الأمر الحاسم:

(فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ).

إنه مقام قتال حقيقي، لا استعارة فيه ولا تمميع. فالسورة لا تتحدث عن خصومة فكرية مجردة، بل عن جيش خرج ليحطم الجماعة المؤمنة ويستأصلها. وحين تُفرض المعركة لا يكون الثبات فيها أمنيّة ناعمة، بل موقفاً يتطلب حسمًا وقوة.

لكن هذه القوة ليست انفجار غضبٍ منفلت. إنها محكومة بسبب أخلاقي واضح: **(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ).**

لم يكن القتال لاختلاف نسب، ولا طمعاً في أرض، ولا عشقاً للدماء؛ وإنما لأن قوةً باغية جعلت نفسها في شقٍ مقابل لأمر الله ورسوله، وصدت عن سبيله، وأخرجت المؤمنين، وجاءت تستأصل وجودهم.

ومن هنا نفهم أن الرحمة في التصور القرآني لا تعني ترك الباطل المسلح يفتك بالناس. قد تكون مقاومته هي الرحمة بالمظلومين، وبالمستضعفين، وبالمستقبل الذي يريد أن يخنقه.

فالسيف لا يكتسب قيمته من حدّه، بل من الحق الذي يحكمه والحدود التي تضبطه.

(وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ).

إن الذين يواجهون الحق لا يواجهون المؤمنين وحدهم؛ وهذه الحقيقة هي التي تنزع من الجماعة شعور الوحدة. لكنها في الوقت نفسه تمنعها من الغرور: فما دامت القضية لله، فلا يحق لأحد أن يحولها إلى مجد شخصي أو عصبية جماعية.

(نَلِكُمْ قُدُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ).

تنقل الآية المشهد من عقوبة الدنيا إلى المصير الأخروي. لأن بدرًا ليست الحساب كله. ما وقع فيها مجرد صفحة من عدل أوسع، أما الفصل الأخير ففي الآخرة؛ حيث تسقط كل الأقنعة، ولا يستطيع سلطان أو مال أو نسب أن يحجب الإنسان عن حقيقة عمله.

لا تمنحوا الخوف ظهوركم

بعد ذلك يأتي النداء المباشر: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ).**

لم يقل: لا تخافوا؛ فالخوف شعور فطري قد يقع. لكنه قال: لا تجعلوا الخوف يدير أجسادكم عن واجبها. فالمواخذه ليست

على خاطر الذي مرّ بالقلب، بل على أن يُسلم له زمام الموقف.

وقد اختار التعبير صورةً حسية: (فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ). لأن لحظة الانهيار قد تبدأ بحركة فرد، ثم تسري في الصف كله. يتراجع واحد فيظن الآخر أن الأمر قد حُسم، فنتحول العدوى النفسية إلى هزيمة جماعية.

ولهذا كان الثبات أمانةً متعدية. أنت لا تثبت لنفسك وحدها؛ بل تثبت لأن قلب أخيك قد يستمد من وقفك قدرةً على البقاء. وقد لا تعرف كم من إنسان تمنعه رؤيتك ثابتًا من السقوط.

ومع ذلك، لم يجعل القرآن الثبات جمودًا عسكريًا، بل استثنى المناورة والانضمام إلى جماعة أخرى: (إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ).

فالشجاعة ليست تهورًا، والثبات ليس انتحارًا، والتراجع التكتيكي ليس فرارًا. العبرة بالغاية التي تحكم الحركة: هل يبتعد ليعود إلى القتال بحكمة، أم يهرب لينجو بنفسه ويترك إخوانه؟

وهنا يميز القرآن بين شكلين قد يتشابهان في الظاهر، ويختلفان في الباطن: خطوة إلى الخلف قد تكون جزءًا من

خطة شجاعة، وقد تكون خيانة للخوف. الذي يفصل بينهما هو المقصد.

ثم يأتي الوعيد لمن فرّ فرار الجبن والخيانة: **(فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ).**

لأن الفرار هنا ليس ضعفاً فردياً فحسب، بل تصدع في جدار يحتمي به الجميع. وحين تصبح الأمة في مواجهة استئصالها، لا تعود النجاة الشخصية منفصلةً عن مصير الجماعة. من يهرب بجسده قد يفتح في الصف ثغرةً تدخل منها الهزيمة إلى أجساد كثيرة.

من الذي رمى؟

ثم تبلغ السورة ذروةً من ذرى تصحيح الوعي: **(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى).**

هذه الآية لا تنفي فعل المؤمنين؛ فهم قاتلوا حقيقة، والنبي ﷺ رمى حقيقة. ولذلك قالت: **(إِذْ رَمَيْتَ).** لكنها تنفي استقلال الفعل البشري بصناعة النتيجة. أثبتت الحركة للإنسان، وردّت بلوغ أثرها الحاسم إلى الله.

وهذه من أدق معادلات التوحيد: للإنسان سعيه، وليس له الاستقلال بالنتيجة.

له أن يرمي، وليس له أن يجعل الرمية تبلغ من الأثر ما شاء.

له أن يخطط، وليس له أن يخلق نجاح الخطة.

له أن يزرع، وليس له أن يأمر الحبة بالانشقاق.

له أن يطرق الباب، وليس له أن يجبره على الانفتاح.

فالآية لا تلغي الإنسان، وإنما تضعه في مقامه الصحيح: عبدًا فاعلاً، لا ربًّا مستقلاً. وهذا المقام يجمع بين المسؤولية والتواضع؛ فلا يتواكل المرء بحجة أن الله هو الفاعل، ولا يغتر بحجة أنه بذل السبب.

(وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا).

حتى النصر ابتلاء. ونحن نعتاد أن نربط البلاء بالمصيبة، لكن القرآن يوسع المعنى: قد يُبْتَلَى الإنسان بالمنع، وقد يُبْتَلَى بالعطاء؛ بالهزيمة ليُختبر صبره، وبالنصر ليُختبر شكره.

وبالبلاء الحسن ليس راحةً خالصة، بل اختبار تخرج منه المعادن الكريمة ظاهرة: صدق، وثبات، وطاعة، وتواضع أمام فضل الله.

(إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).

سمع استغاثتهم، وعلم خوفهم، وعلم ما في القلوب قبل أن تتكلم الألسنة. لم تكن مشاعرهم مستورة عنه، ولا حاجتهم ضائعة في اتساع السماء.

ثم تختتم هذه الوحدة بوعد يجاوز لحظة بدر: **(وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدُ الْكَافِرِينَ).**

لم يقل فقط: مبطل كيدهم؛ بل (مُوهِنٌ)، أي يدخل الوهن إلى بنائه من داخله. فقد يبدو الكيد محكمًا، لكنه يحمل نقطة ضعفه في انفصاله عن الحق. والله قد يمهل حتى يبلغ غاية انتفاخه، ثم يكشف هشاشته من حيث ظن صاحبه أنه أحكمه.

وهكذا لم يكن أول ما منح الله المؤمنين في بدر سيقًا أشد، بل قلبًا أثبت. أنزل عليهم النعاس والماء، وربط على قلوبهم، وبدد وساوسهم، ثم أمرهم أن يتقدموا.

فالنصر في سورة الأنفال لا ينزل على صفوف تتحرك بلا أرواح؛ إنه يبدأ حين يغسل الله غبار الخوف عن القلب، ثم يقول للقدم التي استقرت على أرض اليقين: امضي.

الفصل الثالث

حين يطلب الباطل الحكم على نفسه

بعد أن كشفت السورة وجوه العناية التي أحاطت بالمؤمنين، التفتت إلى قریش، وإلى الدعاء الذي خرج منها وهي تمضي إلى بدر في زهوها: **(إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ).**

الاستفتاح طلب الحكم والفصل. وقد رُوي أن المشركين سألوا الله أن ينصر أهدي الطائفتين وأكرمهما؛ فجاءهم الفصل، لكن على غير ما اشتھوا. طلبوا من السماء أن تحكم، وهم يظنون أن ما ورثوه من سلطان البيت والنسب والجاه سيشهد لهم، فجاء الحكم كاشفًا أن القرب من المقدسات لا يغني عن يعادي الحق الذي جاءت المقدسات لخدمته.

وما أخطر أن يطلب الإنسان الحق وهو مطمئن إلى أنه سيكون في جانبه، من غير أن يفتش قلبه أو يراجع موقفه! قد يحول ثقته بنفسه إلى يقين زائف، ثم يدعو الله أن يفصل بينه وبين خصمه، وهو لا يدرك أنه يستدعي الحجة على نفسه.

لقد جاء الفتح؛ أي الفصل الذي طلبوه. لكنه لم يكن فتحًا لأبواب المجد القرشي، بل فتحًا لباب الحقيقة التي طالما حجبته

الهيبة: أن قريشًا ليست عصيةً على الانكسار، وأن من جاور البيت لا يملك حصانةً من عدل رب البيت.

(وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ).

مع ما فعلوه، بقي باب الرجوع مفتوحًا. لم تجعلهم الهزيمة أسرى لماضيهم، ولم يقل لهم الوحي: انتهى أمركم. بل عرض عليهم أن تتحول الصدمة إلى يقظة.

وهذا من رحمة الخطاب القرآني: يعاقب الباطل، لكنه لا يغلق الطريق على صاحبه إن أراد أن يعود. فالمقصود ليس سحق الإنسان، وإنما كسر الباطل الذي استولى عليه. وما دام القلب ينبض، فثمة إمكان لأن يتحول عدو الأمس إلى جندي للحق غدًا.

وقد أثبت التاريخ ذلك. خرج رجال من قريش يوم بدر يقاتلون الإسلام، ثم دخل الإسلام قلوبًا من البيئة نفسها، فتحولت القوة التي كانت تصد عن الله إلى قوة تدافع عن دينه.

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ).

جملة قصيرة، لكنها تهدم وهماً كبيراً: أن الباطل قد يتعلم كيف يفلت من سنن الله إذا أعاد المحاولة بخطة أخرى. إن عاد

إلى العدوان عاد عليه الجزاء. قد يغير سلاحه، وشعاره،
وطرائق تضليله؛ لكن الله لا تخدعه الأسماء الجديدة.

**(وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُؤْمِنِينَ).**

ليست المشكلة في وجود الفئة، بل في الظن أنها تغني من
دون الله. الكثرة قوة معتبرة في حساب الأسباب، لكن القرآن
يرفض أن تتحول إلى عقيدة. قد تكون الصفوف مزدحمة، وهي
خاوية من المعنى. وقد يكون العدد ضخماً، لكنه يحمل في
داخله بذور التنازع والجبين.

أما معية الله للمؤمنين فهي معية نصر وتأيد وحفظ، تليق
بجلاله سبحانه، لا تشبه قرب المخلوق من المخلوق. وهي
ليست امتيازاً تمنحه الأسماء المجردة، بل ثمرة إيمان صادق
وطاعة وثبات.

فالله لا يكون مع جماعة لأنها رفعت شعاراً دينياً، ثم خانت
قيم الدين في سلوكها. إنما المعية للمؤمنين الذين صدقوا
مقتضى إيمانهم، وبذلوا وسعهم، وأقاموا العدل، ولم يجعلوا
الحق ستاراً لأطماعهم.

السمع الذي لا يغير صاحبه

ثم يعود الخطاب إلى المؤمنين؛ لأن النصر لا يعني انتهاء التربية: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ)**.

لم يقل: وأنتم لا تعلمون، بل: **(وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ)**. فالمأساة ليست دائماً في غياب البيان؛ بل قد تكون في حضور البيان وغياب الاستجابة.

قد يسمع الإنسان الآية، ويفهم معناها، ويحسن شرحها، ثم يترك حياته في جهة أخرى. تصل الكلمة إلى أذنه، لكنها لا تعبر المسافة إلى إرادته. وعندئذ يتحول السماع من حجة له إلى حجة عليه.

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ).

قالوا بالسنتهم: سمعنا. لكنهم لم يسمعوا السماع الذي يوقظ الضمير ويغير الموقف. لأن القرآن لا يعد مجرد انتقال الصوت إلى الأذن سماعاً كاملاً؛ السماع الحق هو أن تمنح الحقيقة فرصة لإعادة تشكيلك.

إن أخطر أنواع الصمم ليس عجز الأذن، بل عجز القلب عن استقبال ما يخالف هواه. يسمع الإنسان ما يؤيد موقفه بوضوح،

فإذا جاءت الآية لتصححه أحاطها بالتأويلات حتى تبقى حياته كما هي.

ولهذا قال سبحانه: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ).

ليس المقصود من فقدوا الحواس خلقة؛ فهؤلاء معذورون مكرمون، وإنما من عطلوا حواس الهداية اختياراً. لهم آذان، لكنهم لا يريدون سماع الحق. ولهم ألسنة، لكنهم لا ينطقون به. ولهم عقول، لكنهم يستخدمونها في حراسة الهوى بدل اكتشاف الحقيقة.

وحين تتفصل الحواس عن غايتها الأخلاقية، ينحدر الإنسان عن مقامه. فقيمة العقل ليست في قدرته على صناعة الحجة فحسب، بل في أمانته أمام الدليل. وقد يكون المرء ذكياً شديداً الحيلة، لكنه لا يعقل في الميزان القرآني؛ لأنه سخر ذكائه للفرار من الحق، لا للوصول إليه.

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ).

الله يعلم خفايا القلوب، ويعلم هل تبحث عن الحق أم عن ذريعة ترفضه بها. أما من أغلق منافذه كلها، وجعل كل بيان مادة جديدة للعناد، فإنه لا ينتفع ولو تكرر عليه الخطاب.

(وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ).

بلغ الإعراض عندهم مبلغًا يجعلهم ينصرفون حتى لو وضع لهم الأمر. فالمشكلة لم تعد غموضًا في الدليل، بل إرادة لا تريد أن تخضع له.

وهنا درس شديد للجماعة المؤمنة بعد بدر: لا يكفي أن تسمعوا نداء القتال فتستجيبوا مرة؛ عليكم أن تظلوا أحياء السمع في كل شأن. فقد ينتصر الإنسان في موقف بطاعة، ثم يبدأ انحداره في موقف آخر حين يظن أن تاريخه السابق يعفيه من استجابة جديدة.

لا توجد طاعة قديمة تغني عن طاعة اليوم. فالإيمان ليس وسامًا يُكتسب مرة، بل حياة تتجدد بالاستجابة.

النداء الذي يهب الحياة

ثم يأتي واحد من أعظم نداءات القرآن: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ).**

كانوا أحياءً يمشون ويتكلمون ويقاقلون، ومع ذلك دُعوا إلى ما يحييهم. فالحياة في القرآن ليست مجرد نبض القلب؛ قد يعيش الجسد وتموت الغاية، وتتحرك الحواس ويذبل الضمير، وتمتلئ الأيام بالأحداث بينما يبقى الوجود فارغًا من المعنى.

الوحي لا يأتي ليضيف إلى الحياة زينةً هامشية، بل ليهبها حقيقتها. يحيي العقل من خرافته، والقلب من قسوته، والإرادة من عبوديتها، والمجتمع من ظلمه، والأمة من خضوعها.

كل أمر إلهي يحمل في باطنه حياة، وإن بدا للنفس تكليفاً شاقاً. الصلاة حياة للقلب، والعدل حياة للعلاقات، والعفة حياة للكرامة، والإنفاق حياة للتكافل، والجهاد المشروع حياة للحق حين تحاول القوة الغاشمة دفنه.

وقد يكره المريض مرارة الدواء لأنه يحاكمه بلسانه، بينما الطبيب يراه من جهة العافية المختبئة فيه. وكذلك النفس قد ترى في بعض أوامر الله قيّداً، لأنها تنظر إلى اللذة العاجلة، ولا ترى الحياة التي يحفظها الأمر من التلف.

(إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ).

لم يقل: لما يشق عليكم، مع أن التكليف قد يحمل المشقة؛ لأنه أراد أن يكشف لنا ما وراء ظاهرها. الله لا ينتفع بطاعتنا، وإنما تعود الحياة إلينا. نحن الذين نخرج من ضيق الشهوة إلى سعة العبودية، ومن تشنت الأهواء إلى وحدة المقصد.

ولكن الاستجابة لا تحتل التسوية الطويل: **(وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ).**

آية تهز أعماق الإنسان. هذا القلب الذي يظنه ملكًا خالصًا له ليس خارجًا عن سلطان الله. تتقلب خواطره وإراداته، وقد يرغب الإنسان في التوبة غدًا فلا يجد في قلبه حرارة الرغبة التي كانت فيه اليوم.

وليس المعنى دعوةً إلى اليأس، بل تحذير من تأجيل الاستجابة. فإذا طرق الحق باب قلبك، فلا تقل: سأفتح له حين أشاء. قد تأتي لحظة لا يعود فيها الباب كما كان، لا لأن الله ظلمك، ولكن لأن الإعراض المتكرر يصنع على القلب قسوةً يصبح معها ما كان يهزه بالأمس يمر عليه اليوم بلا أثر.

بين المرء وقلبه مسافة لا يملكها المرء تمامًا. قد يعرف الصواب، ثم يعجز عن محبته. وقد يرى النور، ثم يفقد رغبة السير إليه. ولذلك كان من أعظم الدعاء سؤال الثبات والهداية؛ لأن القلب لا يستغني لحظة عن ربه.

(وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ).

ليست الاستجابة قضية تحسين نفسي فحسب؛ ورائها حشر ووقوف وسؤال. وستظهر هناك قيمة كل نداء سمعناه: هل لبينا، أم قلنا سمعنا بينما مضت حياتنا في الاتجاه المضاد؟

الفتنة التي لا تعرف حدود البيوت (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً).

الذنب يبدأ فرديًا، لكنه قد لا يبقى فرديًا. حين ينتشر الظلم، ويسكت عنه القادرون، وتنتهوى الحواجز الأخلاقية، تتحول الخطيئة من فعل شخص إلى مناخ عام؛ وعندئذ تمتد آثارها إلى من باشرها ومن جاورها.

فالفساد إذا ترك لا يحترم حياد الصامتين. يشبه نارًا بدأت في غرفة، ثم وجدت الأبواب مفتوحة والناس منشغلين بالقول: لم نشعلها نحن. وحين تآكل السقف لا تسأل عن اليد التي أوقدتها.

هذا لا يعني أن الله يؤاخذ بريئًا بذنب غيره؛ (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)، ولكنه يعني أن للظلم آثارًا دنيوية عامة: يفسد الأمن، ويهدم الثقة، ويضعف الأمة، ويفتح أبواب الاستبداد. وقد يصيب البلاء العام من لم يباشر الظلم، بينما يبقى حساب الآخرة قائمًا على عدل الله الكامل.

ولهذا لم يقل: ابتعدوا عن الظالمين فقط، بل قال: (وَاتَّقُوا فِتْنَةً). أي ابنوا من الوعي والعدل والنصيحة ما يمنع الشر من التحول إلى نظام. فالمجتمع لا يحفظه صلاح الأفراد في

زواياهم وحده، بل يحتاج إلى ضمير عام يرفض أن يصبح الظلم طبيعياً.

وبعد تحذيرهم من الفتنة، أعادهم القرآن إلى ذاكرتهم الأولى:
(وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

الذاكرة هنا ليست حنيناً إلى الماضي، بل حارساً أخلاقياً للحاضر. تذكروا ضعفكم حتى لا تظلموا حين تقوون. تذكروا خوفكم حتى لا تصنعوا الخوف لغيركم. تذكروا أنكم كنتم تبحثون عن مأوى، فلا تغلقوا أبوابه في وجه المستضعفين.

لقد منحهم الله ثلاثة أركان: المأوى، والتأييد، والرزق. مكاناً يحمي الوجود، وقوة تحمي الرسالة، وطيبات تحفظ الحياة. وكلها تتجه نحو غاية واحدة: **(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).**

والشكر ليس كلمة تقال بعد النصر، بل طريقة استعمال النصر. أن تضع القوة في خدمة الحق، والرزق في موضعه، والأمن في بناء العدل. فمن استخدم النعمة في عكس مقصدها لم يشكرها وإن ملأ لسانه بالحمد.

وهكذا تنتقل سورة الأنفال من سماع النداء إلى الاستجابة، ومن الاستجابة الفردية إلى مسؤولية الجماعة، ومن ذاكرة الاستضعاف إلى أخلاق التمكين.

إنها تقول للأمة: لا تكونوا أحياءً لأنكم نجوئكم من أعدائكم فحسب؛ بل لأن الوحي أحياء فيكم ما كان يمكن للخوف والطمع والظلم أن يميته. فكم من أمة بقيت أجسادها بعد النصر، ثم مات قلبها حين لم تعد تستجيب لما يحييها.

الفصل الرابع الخيانة تبدأ حين ينقسم القلب

بعد أن ذكّرت السورة المؤمنين بما كانوا عليه من قلة وخوف، وما صاروا إليه من مأوى ونصر ورزق، واجهتهم بأخطر ما يمكن أن يبدد هذه النعم من الداخل: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)**.

الخيانة في أصلها كسرٌ لثقةٍ أودعت عند الإنسان. وقد تكون مالا يُستحفظ عليه، أو سرًّا يُؤتمن عليه، أو عهدًا يُطلب الوفاء به. لكن الآية ترفع معنى الأمانة إلى مداه الأوسع: الدين نفسه، أمانة، والتكليف أمانة، والانتماء إلى جماعة المؤمنين أمانة، والموقع الذي يقف فيه الإنسان في ساعة الخطر أمانة.

فالخيانة لا تبدأ دائماً بتسليم الأسرار إلى العدو، بل قد تبدأ من لحظة يسمح فيها الإنسان لمصلحة صغيرة أن تتقدم على مقتضى الحق. ينقسم قلبه بين ما يعرفه واجباً وما يريده لنفسه، ثم يمنح الهوى مساحةً يتسلل منها، حتى يصبح التفريط في الأمانة ممكناً.

ولذلك قالت الآية: (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

فثمة فرق بين من يخطئ لأنه لم يتبين، ومن يرى الأمانة واضحة ثم يتجاوزها. العلم هنا يجعل السقوط أشد؛ لأن الخائن لا يضل الطريق، بل يعرفه ثم يتركه طلباً لشيء آخر.

وقد يخون الإنسان أمانته دون أن يمد يده إلى مال؛ حين يصمت في موضع البيان خوفاً على جاهه، أو يزين الباطل لصاحب سلطة، أو يقدم غير الأمين لمصلحة أو قرابة، أو يستخدم ثقة الناس به ليقودهم إلى ما يخدم نفسه.

إنها خيانات صامتة، لا يعلو فيها صليل السيوف، لكنها قد تهدم من الداخل ما عجز العدو عن هدمه من الخارج.

لقد خرج المسلمون من بدر منتصرين، لكن السورة لا تسمح لهم أن يظنوا أن الخطر انتهى. كان أمامهم عدو حمل السلاح، وقد صار خلفهم الآن امتحان أشد خفاءً: هل يحفظون الأمانة بعدما أصبحت لديهم قوة ومغانم ومكانة؟

فالأمم لا تسقط حين يخونها أعداؤها فقط، بل حين يخون أبناؤها المعنى الذي قامت عليه. وحين تتحول الرسالة من أمانة تُؤدَّى إلى غنيمة تُقتسم، يكون الانكسار قد بدأ وإن بقيت الرايات مرفوعة.

المال والولد: موضع الاختبار لا موضع الإدانة

ثم تكشف السورة أحد منابع التي قد تدفع الإنسان إلى الخيانة: **(وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ).**

لم يقل إن الأموال والأولاد شر؛ فالمال نعمة، والولد قرة عين، وكلاهما من عطاء الله. لكن النعمة تتحول إلى فتنة حين تُختبر بها جهة القلب: هل يحبها الإنسان في إطار العبودية، أم يجعلها منافسةً لأمر الله؟

الفتنة هي الامتحان الذي يكشف ما كان مستورًا. فالمال لا يخلق في النفس حقيقتها دائمًا، بل يُظهرها. والولد لا يصنع الضعف كله، لكنه يكشف حدود استعداد الإنسان للتنازل حين يشعر أن مصالح أحبته في خطر.

وقد يبدأ الانحراف بكلمة تبدو بريئة: أفعَل هذا من أجل أولادي. ثم تتسع العبارة حتى تصبح مظلةً لكل تنازل. يكتُم الحق من أجلهم، ويأكل الحرام من أجلهم، ويتعلق بالظالم من أجلهم، ويبيع أمانته ليضمن مستقبلهم؛ كأن الذي رزقه الأولاد عاجز عن رزقهم إلا من باب المعصية.

حب الأسرة من أنبل عواطف الإنسان، لكن القرآن يريد أن يصونه من أن ينقلب عبادةً خفية. فالرحمة بالأبناء لا تكون بأن يورثهم الإنسان مالاً ملوثاً واسماً مثقلاً بالخيانة. قد يؤمن لهم بيتاً واسعاً، لكنه يترك في جدرانه ضيق الذنب. وقد يضمن لهم بعض الدنيا، لكنه يعلمهم بصنيعه أن المبادئ تُباع عند الخوف.

(وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ).

حين تضيق عين الإنسان على مصلحة قريبة، يفتح له القرآن أفقاً أبعد. ما عند الله أعظم مما تخشى فواته. ومن عرف قدر الأجر لم يبيع أمانته بثمن عاجل.

إن الإيمان بالآخرة ليس عزاءً مؤجلاً فقط؛ إنه قوة أخلاقية تحرر الإنسان من الابتزاز. فالذي لا يرى إلا الدنيا يمكن تهديده بكل شيء: بمنصبه، وماله، ومستقبل أولاده. أما الذي يرى ما عند الله، فقد امتلك مساحةً من الحرية لا يستطيع سلطان الأرض أن يصل إليها.

الفرقان الذي يولد من التقوى

وبعد التحذير من الخيانة وفتنة الأموال والأولاد، تمنح السورة المؤمن مفتاح النجاة: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا).**

الفرقان نور يميز به القلب بين الحق والباطل، وبين الطريقين حين تتشابه العلامات، وبين النصيحة والمكيدة، وبين الشجاعة والتهور، وبين الحكمة والجبن، وبين المصلحة الحقيقية والشهوة التي تتنكر في لباس المصلحة.

ولم تجعل الآية الفرقان ثمرة الذكاء وحده، بل ثمرة التقوى. لأن بعض الضلال لا ينشأ من ضعف العقل، وإنما من فساد الإرادة. قد يكون الدليل واضحاً، لكن الهوى يضع عليه غباراً كثيفاً. ويصبح الإنسان عاجزاً عن رؤية ما لا يرغب في رؤيته.

التقوى تنظف نافذة الإدراك. لا تمنح الإنسان معلومات جديدة فحسب، بل تحرره من الانحياز الذي يفسد استعمال المعلومات. فمن خاف الله لم يحتج إلى أن يخدع نفسه ليبرر خيانتته، ولم يجعل عقله محامياً عن شهوته.

وهنا سر عجيب: كلما صدق الإنسان في طلب الحق، اتضحت له الفروق الدقيقة. يرى موضع الانحراف في كلمة، ويشم رائحة المصلحة المتخفية وراء الشعارات، ويدرك أن الطريق الذي يبدأ بتنازل صغير قد ينتهي إلى سقوط كبير.

أما حين تضعف التقوى، فتختلط المقاييس. يسمى الجبن حكمة، والخيانة واقعية، والمداينة مرونة، والطمع مصلحة عامة، والتعصب ولاءً. لا تتغير الأشياء في ذاتها، لكن أسماءها تتبدل حتى يتمكن الضمير من قبولها.

(وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ).

التقوى ليست عصمةً من الخطأ؛ فالمتقون قد يزلون. لكنها تجعل القلب سريع الرجوع، فلا يحول الزلة إلى طريق، ولا الخطأ إلى هوية، ولا الذنب إلى نظرية يدافع عنها.

التكفير يمحو أثر السيئات، والمغفرة تسترها وتتجاوز عنها. وكأن الله لا يمنح المتقي نوراً للمستقبل فحسب، بل يفتح له سبيل التحرر من أنقال الماضي أيضاً.

(وَاللَّهُ نُورُ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

فالهداية فضل، والفرقان فضل، والمغفرة فضل، والثبات فضل. ليس في الطريق موضع لغرور العابد؛ لأنه كلما نجا من فتنة رأى يد الفضل التي أنقذته.

ليلة المؤامرة التي صارت فجر الهجرة

ثم تعود السورة بالرسول ﷺ إلى مكة، إلى اللحظة التي أحاط فيها به مكر قريش:

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ).

ثلاثة خيارات وضعتها قريش: الحبس، أو القتل، أو الإخراج.

أرادوا أن يوقفوا حركة الرسالة بأحدها. ولكنهم لم يدركوا أن الدعوة التي تنزل من السماء لا تُحبس في غرفة، ولا تموت بموت حامل، ولا تضيع إذا خرجت من مدينة.

اختاروا إخراجهم من مكة، فكان إخراجهم بداية قيام الدولة في المدينة. ظنوا أنهم يضيقون عليه المكان، فإذا بهم يفتحون له فضاء التاريخ. كانوا يدبرون لإسكات الدعوة، وكان تدبيرهم نفسه يدفعها إلى مرحلة لم تكن لتبلغها في مكة بالكيفية ذاتها.

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ).

يُثبت القرآن لهم مكرهم؛ فهم يفكرون ويخططون ويتشاورون، وليسوا أوهامًا بلا فعل. لكنه يضع مكرهم داخل سلطان الله. ومكر الله بهم تدبير يليق بجلاله وعدله سبحانه،

يجازي به مكرهم ويبطله من حيث لا يشعرون، وليس كمكر المخلوقين.

لقد رأوا جزءًا صغيرًا من المشهد، ورأى الله المشهد كله. حاصروا البيت، لكنهم لم يستطيعوا محاصرة القدر. امتلكوا ليلتهم، ولم يمتلكوا صباحها.

وهذه الآية لا تعلم المؤمن إهمال الحذر؛ فالنبي ﷺ أخذ بأدق أسباب الهجرة، واختار الرفيق، والدليل، والطريق، وموضع الاختفاء. لكنها تعلمه ألا يمنح مكر العدو منزلة القدر المحتوم.

قد يكون خصمك واسع الحيلة، لكنه لا يرى إلا ما يسمح له أفقه المحدود أن يراه. وقد يحسب كل الاحتمالات، ثم يدخل عليه قدر الله من الباب الذي ظنه مغلقًا.

(وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ).

أي أن تدبيره غالب، وعلمه محيط، وقدرته لا يعجزها شيء. فإذا تعارض مكر البشر مع مراده سبحانه، صار مكرهم خيلاً في النسيج الذي أرادوا تمزيقه.

حين تتحول الألفة إلى حجاب

(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنَّا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ).

لم يقولوا: لم نفهم. قالوا: (قَدْ سَمِعْنَا). لكنهم جعلوا الألفة مانعاً من التأثير. ظنوا أن تكرر السماع يعني الإحاطة بالحقيقة، وأن قدرتهم على النقاط الألفاظ تمنحهم قدرةً على الإتيان بمثل القرآن.

والتعالي يمنع الإنسان من رؤية المعجزة وإن كانت بين يديه. لا لأن البرهان ناقص، بل لأن الاعتراف به سيهدم صورته عن نفسه. فقد كانت قريش تعرف من كلام العرب ما تعرف، وتدرك في أعماقها فريدة القرآن، لكنها لم تكن مستعدة لدفع ثمن الإقرار.

(لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا).

هذه دعوى العاجز الذي يؤجل برهانه إلى مشيئة لا تقع. لم يقولوا مثله، وإنما قالوا إنهم يستطيعون لو أرادوا؛ وبذلك صنعوا لأنفسهم وهم القدرة بلا اختبار.

وكم يختبئ العجز خلف كلمة: لو شئنا! يرفض الإنسان الدخول في ميدان البرهان، ثم يتحدث بثقة عمن دخلوه. لأن

الادعاء أرخص من الإنجاز، والكبر يستطيع أن يصنع من الفراغ صوتًا مرتفعًا.

ثم وصفوه بأنه (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ). والتسمية هنا وسيلة نفسية للتخلص من وطأة النص. فإذا عجز المرء عن مواجهة الفكرة، وضع عليها اسمًا منفردًا، ثم أقنع نفسه أنه قد رد عليها. لا يناقش مضمونها، بل يعيد تصنيفها كي لا يضطر إلى سماعها.

الدعاء الذي فضح قلوبهم

ثم تسجل السورة قولًا من أعجب ما قاله المكذبون: (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ).

كان مقتضى العقل أن يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا إليه. لكنهم قالوا: فأمطر علينا حجارة.

وهنا ينكشف أن المشكلة لم تكن بحثًا عن الحقيقة، بل رفضًا لها حتى لو كانت من عند الله. لقد فضلوا الهلاك على أن تنهار زعامتهم الفكرية والاجتماعية أمام القرآن.

إنه العناد حين يبلغ ذروته: لا يعود الإنسان يريد أن يعرف ما هو الحق، بل يريد أن يبقى ما ألفه حقًا ولو هلك.

وفي هذه الآية فرق هائل بين قليبين: قلب يقول: اللهم إن كان هذا حقاً فاهدني إليه، ولو خالف ما عشت عليه.

وقلب يقول: إن كان هذا حقاً فأهلكني، لأنني لا أريد حياةً تسقط فيها أوهامي.

الأول يعبد الله، والثاني يعبد صورته عن نفسه.

ومع ذلك لم ينزل العذاب الذي استعجلوه: **(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)**.

كان وجود النبي ﷺ أماناً من عذاب الاستئصال، وكان الاستغفار باباً آخر للأمان. وفي الآية إشراقة رحمة وسط مشهد العناد: البشر يستدعون الحجارة، والرحمة تؤخرها. يطلبون الهلاك في لحظة طيش، والله يمهلهم لعل في أصلابهم أو قلوبهم من يعود.

ثم انقضى الأمان الأول بخروجه ﷺ، وبقي باب الاستغفار مفتوحاً لكل من رجع. والاستغفار ليس مجرد تكرار لفظ، بل انكسار يعيد العبد من مواقع التحدي إلى مقام العبودية.

ما دام الإنسان يستغفر بصدق، فهو يعترف بأن له رباً، وأنه أخطأ، وأن باب العودة ليس من صنعه بل من فضل الله. وهذا الاعتراف يطهر القلب من أخطر أدوائه: الاستغناء والكبر.

وهكذا يجتمع في هذا المقطع معنى الأمانة والفتنة والفرقان والمكر والاستغفار. وكلها تدور حول مركز واحد: القلب إذا بقي موحد الوجهة حفظ الأمانة، ورأى الفرقان، ونجا من المكر، وعاد إذا زل. أما إذا انقسم بين الله وهواه، بدأت الخيانة من داخله قبل أن تظهر في أفعاله.

فالخائن لا يفقد الأمانة دفعةً واحدة؛ إنه يفقد أولاً وضوحه الداخلي، ثم يسمى ضعفه مصلحة، وتنازله حكمة، وسكوته نجاة. حتى إذا تكررت الأسماء الزائفة، ضاع الفرقان، وأصبح القلب عاجزاً عن رؤية الطريق الذي كان يعرفه.

الفصل الخامس

حين تستولي القوة على بيت العباد

بعد أن ذكرت السورة الأمان الذي كان يحول دون نزول العذاب، عادت تكشف التناقض العميق في موقف قريش: **(وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّفِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).**

كانت قريش تتكئ على قربها من البيت، وترى في سدانته شرقاً يمنحها منزلةً لا ينافرها فيها أحد. لكنها في الوقت نفسه تصد المؤمنين عنه، وتمنع دعوة التوحيد التي بُني البيت لأجلها.

وهنا يهدم القرآن دعوى امتلاك المقدسات بالنسب أو التاريخ أو السيطرة الواقعة.

فالمسجد الحرام لا يصبح ملكاً أخلاقياً لمن أمسك مفاتيحه، إذا كان يغلق أبوابه في وجه الغاية التي أقيم لها. والمقدسات لا يحرسها مجرد القرب المكاني؛ فقد يجاور الإنسان البيت ويكون قلبه أبعد ما يكون عن رب البيت.

(وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ).

إن الولاية ليست ملكية موروثة، ولا لقبًا اجتماعيًا، ولا سلطةً تفرض نفسها بالقوة. معيارها واضح: (إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ).

فالمُتَّقُونَ هم الأجدر بخدمة بيوت الله؛ لأنهم يعرفون أنها ليست منصاتٍ للهيمنة، ولا مصادر للوجاهة، ولا ستارًا يختبئ خلفه الظلم. إنها أمكنة يذوب فيها التفاوت البشري أمام مقام العبودية.

والآية تضع قاعدةً أبعد من سياقها المباشر: لا تمنح الرموز الدينية أصحابها حصانةً من النقد الأخلاقي. فربما سيطر قوم على مؤسسة من مؤسسات الدين، ثم جعلوا منها أداةً لمصالحهم؛ فلا تصبح سيطرتهم دليلًا على ولايتهم، بل قد تكون حجةً عليهم.

إن المقدس لا يقدّس من يستخدمه، وإنما يمتحنه.

قد يحمل الإنسان المصحف، ويكون خصمًا لقيمه. وقد يتحدث باسم الشريعة، ثم يقف بين الناس وعدلها. وقد يبني مسجدًا، ثم يهدم في المجتمع الصدق والرحمة والكرامة. وليس

الشان في الصورة التي يظهر بها، بل في مقدار التقوى التي تحكم عمله.

(وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).

لا يعلمون حقيقة الولاية، ولا معنى البيت، ولا الفارق بين خدمة المقدس واستخدامه. لقد غلبتهم الألفة حتى حسبوا الميراث حقاً ذاتياً، ونسوا أن إبراهيم عليه السلام حين رفع قواعد البيت رفعها للتوحيد، لا لتثبيت امتياز قبلي.

عبادة فقدت روحها

ثم يرسم القرآن عبادتهم حول البيت في صورة موجزة كاشفة: **(وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً).**

المكاء صفير، والتصدية تصفيق. لقد بقي المكان، وضاعت حقيقة العبادة. بقيت الحركة والصوت، وغاب الخضوع والمعنى.

وهذه هي المأساة التي تصيب التدين حين يُفَرَّغَ من مضمونه: قد يحتفظ بالشكل، لكنه يفقد قدرته على تغيير الإنسان. يصبح طقساً يؤديه الجسد، بينما يمضي القلب في اتجاه آخر.

لم تنكر الآية أنهم يصنعون شيئاً عند البيت، لكنها سلبت ذلك الشيء اسم الصلاة في حقيقتها. فالعبادة ليست كل حركة تُنسب إلى الدين، وإنما ما وافق هدي الله وقام على الإخلاص والخضوع.

قد تزدحم الأجواء بالأصوات، بينما يغيب الذكر. وقد تكثر المظاهر، بينما تقل التقوى. وقد تتحول العبادة من لحظة ينكسر فيها الإنسان أمام ربه إلى مشهد يستعرض فيه نفسه أمام الناس.

والتدين الزائف لا يرفض المقدسات؛ بل قد يتعلق بها تعلقاً شديداً، لأنه يستخدمها لتعويض فراغ الحقيقة. يرفع الصوت كلما ضعف المعنى، ويبالغ في الشكل كلما عجز عن إنتاج أثره الأخلاقي.

أما الصلاة التي يريدّها الله، فهي التي تعيد الإنسان من تشتته إلى ربه، ومن غروره إلى عبوديته، ومن ظلمه إلى الحياء. فإذا خرج المرء منها كما دخل، لم تمسّ كبره، ولم تمنعه من صد الناس عن الحق، فقد بقي له من الصلاة رسمها، وضاعت روحها.

(فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ).

جاء الجزاء بعد أن استعملوا البيت في غير غايته، وجعلوا العبادة غطاءً على الكفر والصد. فالجزاء ليس على نقص جمالي في طقوسهم، بل على انقلاب شامل: بيت التوحيد صار عندهم مركزاً للشرك، وشرف خدمته صار أداة لصد الموحدين.

المال الذي يحارب الحقيقة

ثم تنتقل السورة إلى وسيلة أخرى من وسائل الباطل: **(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصْنُؤْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ).**

لا يعيش الباطل على الحجة، ولذلك يحتاج إلى تمويل الضجيج حولها. يشتري الولاءات، ويجمع الجيوش، ويصنع المنابر، ويكافئ من يزيّن صورته، ويقيم بين الناس والحقيقة جداراً من المصالح والمخاوف.

إنهم ينفقون؛ أي يبذلون فعلاً، ويتحملون التكاليف، ويخططون لمشروعهم. فالقرآن لا يقلل من جهد الباطل، ولا يتعامل معه بوصفه عابراً سيزول بلا مقاومة. لكنه يكشف مآل هذا الإنفاق: **(فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ).**

إنها ثلاث مراحل متتابعة: إنفاق، ثم حسرة، ثم غلبة.

ينفقون المال وهم يرونه قوةً في أيديهم، ثم يتحول يومًا إلى شاهد على عجزهم. لأن المال يستطيع أن يشتري صوتًا، لكنه لا يستطيع أن يخلق حقيقة. يستطيع تأخير وصول النور، لكنه لا يملك إطفاءه.

وكل مال بُذِل لحجب الناس عن الله يحمل في داخله نواة الحسرة؛ لأنه انتقل من كونه نعمةً يمكن أن تعمر الحياة إلى وقود يحارب الغاية التي خلق الإنسان لأجلها.

قد يفرح صاحب الباطل بكثرة أدواته، وينظر إلى أهل الحق فيراهم فقراء محدودين، فيظن أن النتيجة حُسمت. لكنه لا يحسب عمر الأكاذيب، ولا اللحظة التي تستيقظ فيها الضمائر، ولا الشقوق الصغيرة التي يبدأ منها انهيار الصورة المصنوعة.

(ثُمَّ يُغْلَبُونَ).

لا تعني الغلبة دائمًا أن يسقط الباطل فورًا. فقد يطول زمنه، ويتسع سلطانه، ويظن أهله أن التاريخ قد استقر لهم. لكن بقاءه الطويل لا يحوله إلى حق، وتأخر سقوطه لا يمنحه الخلود.

والتعبير بـ**(ثُمَّ)** يهيئ القلب لفهم الزمن. بين الإنفاق والحسرة مسافة، وبين الحسرة والغلبة مسافة. وعلى أهل الحق ألا يحاكموا الوعد الإلهي إلى استعجالهم؛ فالسنن تنضج في

أوقاتها، وما يبدو ساكنًا فوق السطح قد يكون في الأعماق يتصدع.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ).

فإذا أفلت صاحب المال في الدنيا من رؤية الحسرة كاملة، فلن يفلت من الحشر. هناك يرى أين أنفق عمره وثروته، وكم باب هداية أغلقه، وكم إنسانًا صدّه، وكم باطلاً أطل عمره.

غربال التاريخ

(لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

المعركة في ظاهرها تصادم بين قوتين، لكنها في عمقها عملية تمييز. فالشدائد تكشف المعادن، وتُخرج ما كان مختلطاً في أوقات السعة.

قبل الامتحان قد يتشابه الصادق والمدعي، والشجاع والمتظاهر بالشجاعة، وصاحب المبدأ وصاحب المصلحة. تتجاوز الكلمات، وتتقارب الوجوه، ويبدو الصف واحداً. فإذا جاءت المحنة سقطت الزوائد، وانكشف موضع كل قلب.

الابتلاء غربال لا يخلق الصدق ولا النفاق، لكنه يخرجهما من الخفاء إلى المشهد.

(وَيَجْعَلِ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ).

للباطل خاصية التجمع؛ لأن المصالح المتشابهة تستدعي بعضها. قد يختلف أهله في أشياء كثيرة، لكنهم يتقاربون حين يشعرون أن الحق يهدد امتيازاتهم. يجتمع فساد المال إلى فساد الكلمة، وقوة السلاح إلى قوة التضليل، والانتهازي إلى المستبد؛ حتى يصير الخبيث ركامًا.

وهذا الركام قد يبدو ضخماً، لكن ضخامة التراكم ليست علامة حياة. قد تتراكم الأشياء الميتة حتى تصبح جبلاً، بينما تنمو بذرة طيبة صغيرة لتصير شجرة.

ثم تكون نهاية الركام إلى النار؛ لأن الخسارة الحقيقية ليست أن تخسر معركةً عابرة، وإنما أن تجعل وجودك كله مادةً في بناء الباطل، ثم تكتشف أن البناء لم يكن يرتفع بك، بل كان يردمك داخله.

باب الماضي لا يُغلق على التائب

وبعد كل ذلك الوعيد يأتي العرض الرحيم: **(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ).**

ما أعجب هذا الباب! أنفقوا أموالهم للصد، وآذوا المؤمنين، وأخرجوهم من ديارهم، وخرجوا لحربهم؛ ثم يقال لهم: إن تنتهوا يُغفر لكم ما قد سلف.

لا يريد الله من الإنسان أن يبقى سجين تاريخه إذا صدق في الرجوع. فالتوبة لا تمحو فعلاً صغيراً فحسب، بل تستطيع أن تقطع سلسلة طويلة من العدا، وتعيد الإنسان إلى الحياة بقلب جديد.

(مَا قَدْ سَلَفَ).

كل ذلك الماضي المتراكم يمكن أن يصبح وراء الظهر إذا انقلب اتجاه القلب حقاً. فالعبرة في ميزان الهداية ليست بالموقع الذي بدأت منه، بل بالوجهة التي انتهيت إليها.

وهذه الآية تمنع الداعية من مصادرة مستقبل الناس بسبب ماضيهم. فقد يقف أمامك اليوم من حارب الحق بالأمس، فلا تجعل ذنبه القديم قدراً نهائياً. إن الله الذي يعلم ما فعل فتح له باباً، فلا تغلقه أنت بقسوة التصنيف.

لكن الرحمة لا تعني تعطيل العدل: **(وَإِنْ يَعُوذُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ).**

إن انتهوا فالمغفرة، وإن عادوا إلى الصد والعدوان فالسنة ماضية. وهكذا يجمع القرآن بين باب الرجوع وقوة الردع. لا يطارد التائب بماضيه، ولا يمكّن المعتدي من الاستمرار بحجة الرحمة.

القتال حتى تسقط سلطة الفتنة

ثم يأتي الأمر: **(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ).**

الفتنة هنا اضطهاد الناس عن دينهم، وصددهم عن الحق، وإخضاع الاعتقاد لسلطان القوة. فالمؤمنون في مكة لم يكونوا أصحاب سلطان يكرهون غيرهم؛ كانوا هم الذين فُتِنُوا عن دينهم، وعُذِبُوا وأُخرجوا لأنهم قالوا ربنا الله.

ومن ثم جاء القتال لرفع سلطة تجعل الإيمان جريمة، وتمنع الناس أن يعبدوا الله. غايته تحرير الطريق إلى العقيدة، لا إجبار القلوب عليها؛ فالقلوب لا تدخل الإيمان بقوة السلاح، ولكن السلاح قد يكون ضروريًا لكسر اليد التي تمنعها من حرية الاختيار.

(وَيَكُونَنَّ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ).

أي لا يبقى في أمر العبادة سلطان ينازع حكم الله، ولا تُفتن النفوس عن توحيده، ولا يُرد الناس عن سبيله بقوة القهر.

وهذا مقصد يطهر القتال من الأغراض الأرضية. فالمؤمن لا يقاتل ليكون الدين كله لنفسه، ولا لحزبه، ولا لقبيلته، بل لله. فإذا قاتل ليصنع طغياناً جديداً يحمل اسمه، فقد نقض الغاية التي زعم أنه يحملها.

(فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ).

إذا انتهى العدوان انتهى القتال. فلا ثار يتغذى على الدم، ولا رغبة في الإبادة، ولا استثمار دائم لعداوة مضت. الله بصير بصدق انتهائهم، وهو الذي يتولى سرائرهم، وعلى المؤمنين أن يقفوا حيث يقف التكليف.

(وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ).

تبدأ المواجهة بالعلم: (فَاعْلَمُوا). قبل السلاح، تثبتوا الحقيقة في القلوب: الله مولاكم.

المولى هو الذي يتولى أمركم ويحفظكم وينصركم. وإذا استقرت هذه الولاية في النفس، تحررت من التسول عند قوى الأرض. لا يعني ذلك أنها تستغني عن التحالفات والأسباب

المشروعة، لكنها لا تسلم مصيرها النفسي لمن يملك المال وال سلاح.

(نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ).

قد يتولى البشر ثم يتخلون عند الكلفة. وقد ينصرون ما دامت مصالحهم قائمة، فإذا تبدلت تركوا حلفاءهم في منتصف الطريق. أما ولاية الله فليست صفقة مؤقتة، ونصره ليس محكوماً بعجز أو جهل أو تغير مصلحة.

وهكذا تصح سورة الأنفال علاقة المؤمن بالقوة: لا يغتر بقوته، ولا يرتهن لقوة غيره، ولا يخشى كثرة عدوه، ولا يستخدم السلاح لصنع قداسة لنفسه.

فالبيت لله، والدين لله، والمال نعمة من الله، والنصر من عند الله.

وحين تستقر هذه المعاني، لا يعود المؤمن يقاتل لينقل مفاتيح الطغيان من يد إلى يده؛ بل ليكسر القفل الذي حال بين الإنسان وربّه. فإذا انكسر القفل، لم يعد للسيف غاية، وبقيت الكلمة تخاطب القلب في حرية: (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ).

الفصل السادس

حين توضع الغنيمة في ميزان الرسالة

بعد أن قررت السورة أن الله هو المولى والنصير، عادت إلى القضية التي افتتحت بها: الأنفال. لكنها تعود الآن بعد أن مرّت بالقلوب على مشاهد الخوف والدعاء والمطر والملائكة والثبات؛ لكي لا يُنظر إلى المال منفصلاً عن المعنى الذي أوجده.

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ).

قال: (مِنْ شَيْءٍ)؛ ليشمل الحكم قليل الغنيمة وكثيرها. فالأمانة لا تتغير بتغير المقدار، والحق لا يصبح قابلاً للتجاوز حين يصغر.

وتوزيع الغنيمة هنا ليس إجراءً مالياً جامداً؛ إنه تربية للنفس بعد المعركة. فالمقاتل الذي واجه الموت قد يشعر أن كل ما في الميدان حق خالص له، لكن الوحي يربطه بالمجتمع الذي يقف خلفه، وبالفئات التي لا تستطيع حمل السلاح، لكنها جزء من الأمة ومسؤوليتها.

في الغنيمة حق لليتيم الذي لا أب له يحميه، وللمسكين الذي لم يمنعه فقره من الانتماء إلى الجماعة، ولابن السبيل الذي

انقطعت به الطرق. وكان النصر لا يكتمل حين يعود الأقوياء ممثلي الأيدي، بل حين يصل أثره إلى الضعفاء أيضاً.

فالمال الذي وُلد من توضحيات الأمة لا ينبغي أن يتحول إلى امتياز ضيق لطائفة منها. وإذا لم يحمل النصر في داخله عدلاً اجتماعياً، فقد بقي حدثاً عسكرياً ولم يصبح قيمةً حضارية.

وقد نسبت الآية الخمس إلى الله والرسول ﷺ، لا لأن الله تعالى يحتاج إلى مال، سبحانه الغني الحميد، ولكن لإخراجه من قبضة الأهواء وإدخاله تحت حكم الشرع، حتى لا تتنازعه العصبيات ولا تستأثر به القوة.

ثم ربطت الامتثال بهذا الحكم بالإيمان: **(إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ).**

مرةً أخرى تُختبر العقيدة عند المال. فمن السهل أن يقول الإنسان: آمنت بالله، لكن صدق إيمانه يظهر حين يدخل حكم الله بينه وبين ما تحبه نفسه.

لم يقل: **إِنْ كُنْتُمْ انتصرتُمْ في بدر؛ بل قال: (إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ).** لأن القيمة ليست في حضور يوم الفرقان وحده، وإنما في الخضوع للذي أنزل الفرقان.

وسمى بدرًا (يَوْمَ الْفُرْقَانِ)؛ لأنه فصل بين مرحلتين: بين دعوة كانت مطاردةً ودعوةً أصبح لها حضور يفرض نفسه، وبين هيبة قريش المتضخمة وحقيقتها القابلة للانكسار، وبين من استجاب للحق ومن اختار الوقوف في وجهه.

لكن الفرقان لم يكن في خارجهم فقط. لقد مرّ الخط الفاصل داخل النفوس أيضًا: بين الاعتماد على الله والاعتماد على العدد، وبين إرادة الغنيمة وإرادة الرسالة، وبين الطاعة وحظ النفس.

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

هو الذي أقدر القلة على مواجهة الكثرة، وأنزل الماء، وثبت الأقدام، وبلغ بالرمية أثرها، ثم وضع للمال نظامه. فالقدرة التي أدارت الميدان هي نفسها التي تربي الضمير بعده؛ ولا يكتمل الإيمان بقدرة الله في ساعة الخطر مع رفض حكمه في ساعة المكسب.

مشهد رتبه القدر

ثم تعيد السورة رسم موقع الجيشين: **(إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ).**

هذه ليست إحداثيات جغرافية فحسب، بل خريطة لتدبير إلهي دقيق. المؤمنون في جانب، والمشركون في الجانب المقابل، والقفلة مضت في طريقها؛ وكل طرف تحرك بأسبابه، حتى اجتمع الجيشان عند موعد لم يضربه أحدهما للآخر.

(وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ).

لو علم المؤمنون منذ البداية أنهم سيلاقون جيش قريش بكامل قوته، ربما ترددت بعض النفوس، واختلفت التقديرات، وتعذر الاجتماع على الموعد. لكن الله ساق الأحداث على نحو جعل اللقاء واقعاً قبل أن تُنهكه الاحتمالات.

وقد يكون من رحمة الله بالإنسان أن يحجب عنه بعض الطريق. لو رأى في بدايته كل ما سيواجهه، لقعد قبل أن يخطو. لكنه يُعطى من النور مقدار الخطوة، ثم تأتي الخطوة التالية ومعها نورها.

ليس كل جهل بالمستقبل حرماناً؛ قد يكون حمايةً من خوف سابق لأوانه.

كم من إنسان دخل تجربةً عظيمةً لأنه لم ير مشقتها دفعةً واحدة! مضى يوماً بعد يوم، حتى وجد في نفسه من القوة ما لم يكن يظن أنه يملكه. ولو عُرِضَتْ عليه القصة كاملةً في أولها، لربما اختار السلامة وضاعت منه الولادة الجديدة التي صنعتها المحنة.

(وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا).

جرى الأمر في علم الله وتقديره، لكنه لم يبلغ أفعال البشر واختياراتهم. قريش خرجت بكبرها، والمؤمنون خرجوا استجابةً لنبيهم ﷺ، وكل فريق عمل بإرادته؛ ثم أحاطت الإرادات البشرية مشيئة الله النافذة.

وهذا التوازن يريح القلب من وهمين متقابلين: وهم أن الإنسان يصنع التاريخ وحده، وهم أنه حجر لا فعل له. بل هو مسؤول عما يختار، بينما لا يخرج اختياره عن ملك الله وقدره.

الهلاك عن بيّنة والحياة عن بيّنة

(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ).

لم تعد الحقيقة بعد بدر كما كانت قبلها. قامت الحجة في صورة واقعة رآها الناس: جماعة قليلة خرجت ضعيفة

الأدوات، ثم انكسرت أمامها قوة جاءت مختالَةً تريد إطفاء الرسالة.

لكن الهلاك والحياة هنا يتجاوزان موت الأجساد وبقاءها. قد يمشي الإنسان حيًّا وهو هالك المعنى، وقد يُقتل في سبيل الله وتبقى حياته ممتدةً في أثره ومصيره.

الحياة الحقيقية أن يستجيب القلب للبيئة، والهلاك أن يراها ثم يختار العناد. ولهذا ربط القرآن كليهما بالوضوح؛ حتى لا يظن أحد أن المصائر الأخلاقية تُبنى على الغموض أو العبث.

(وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ).

سمع أقوال الفريقين، وعلم ما تخفيه صدورهم. لم تكن صورة الشجاعة الظاهرة كافية، ولا الشعارات العالية؛ فالحكم عند من يعلم الارتجافة الخفية والإخلاص الخفي والخيانة قبل أن تظهر.

الرويا التي أنقذت القلوب من عبء العدد

(إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَتَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ).

أرى الله نبيه ﷺ العدو قليلاً في المنام، فقص ذلك على أصحابه، واستقرت الطمأنينة فيهم. ولم يكن المقصود تقديم

معلومة عددية مجردة، بل إظهار حقيقتهم من جهة أثرهم ومآلهم: هم قليلون أمام قدرة الله، مهما كثرت أجسادهم.

فالعَدَد حقيقة، لكنه ليس الحقيقة كلها. قد تكون جماعة كثيرة، لكنها قليلة الصبر، قليلة اليقين، مفككة المقاصد. وقد تكون قلة في الإحصاء، لكنها تحمل روحًا تجعل أثرها أكبر من حجمها.

(وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ).

تكشف الآية أثر الصورة الذهنية في صناعة القرار. فالإنسان لا يتعامل مع الأشياء وحدها، بل مع تمثلاتها في داخله. وإذا دخلت صورة العدو متضخمة في القلب، أنتجت الوهن قبل اللقاء.

ثم إن الفشل الداخلي يلد التنازع: **(وَلَتَنَازَعُنَّ فِي الْأَمْرِ).**

حين يضعف اليقين، تتكاثر الآراء المضطربة. لا يعود النقاش بحثًا هادئًا عن الصواب، بل يصبح كل رأي منفذًا يبحث صاحبه من خلاله عن النجاة. ينادي بعضهم بالتقدم، وبعضهم بالترجع، وبعضهم بالانتظار؛ فتضيع الطاقة في الداخل قبل أن تصل إلى العدو.

(وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ).

يا لها من جملة تحمل تاريخًا كاملاً من اللطف! سلم القلوب من الفشل، والصف من التنازع، والقرار من التردد. وربما لا يعرف الإنسان كم مرة سلمه الله من خطر لم يره؛ خاطر لو تضخم لأفسد عزمه، أو كلمة لو قيلت لشقت الصف، أو معلومة لو عرفها قبل أوانها لأعجزته.

من نعم الله نعمٌ نعرفها لأنها حضرت، ونعمٌ لا نعرفها لأنها مُنعت من الحضور.

(إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

يعلم مقدار ما تحتمله القلوب، وما يثبتها وما يزلزلها. والتربية الإلهية لا تتعامل مع الإنسان بوصفه آلة تُلقى إليها الأوامر، بل تراعي بناءه النفسي وتنتقل به من حال إلى حال.

تقليل متبادل حتى يقع الموعد

(وَإِنْ يُرِكْمُوهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَمُتَّقِيكُمْ فِي أُعْيُكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلِلُكُمْ فِي أُعْيِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا).

رأى المؤمنون المشركين أقل مما يبعثهم على الثبات، ورأى المشركون المؤمنين أقل مما يدفعهم إلى الإقدام من غير أن

يعودوا. تقابل الوهمان، لكنهما أديا إلى وقوع الحقيقة التي أرادها الله.

قلل الله كل فريق في عين الآخر، لا لتكون النتيجة خداعاً بلا حكمة، بل ليجري اللقاء الذي يميز الصفوف وقيم الحجة.

وهكذا قد يستعمل القدر حتى سوء تقدير الباطل لتحقيق غاية الحق. احتقار قریش للمؤمنين جعلها تمضي مطمئنةً إلى معركةٍ ظنتها نزهةً، فلم تدرك أنها كانت تمضي إلى الموعد الذي ستسقط فيه هيبتها.

(وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ).

بدأت الأمور عند البشر حساباتٍ متفرقة: قافلة تنجو، وجيش يخرج، ومسلمون يريدون العير، وقریش تريد حفظ مكانتها. ثم اجتمعت الخيوط كلها في قبضة تدبير واحد.

كل طريق يرجع إلى الله، وكل سبب ينتهي عند مشيئته، وكل قصة - مهما ازدحمت فيها إرادات الناس - لا تخرج خاتمتها عن حكمه.

قوانين الثبات في ساعة اللقاء

ثم تخاطب السورة المؤمنين بوصايا الميدان: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).**

الثبات أولاً، والذكر معه. وكان القدم لا تستمد ثباتها من الأرض وحدها، بل من قلب موصول بالله.

في العادة يظن الإنسان أن شدة الموقف تستدعي انصراف ذهن كله إلى العدو، لكن القرآن يأمر بذكر الله كثيراً في قلب المواجهة. لأن استغراق القلب في رؤية العدو قد يضخمه، أما ذكر الله فيعيد النسب إلى حقيقتها: مهما عظمت القوة المقابلة فهي مخلوقة، ومهما ضعفت أدواتك فأنت لست مقطوعاً عن ربك.

والذكر هنا ليس انسحاباً من الواقع، بل أعمق حضور فيه. إنه يحمي المقاتل من الخوف والطيش معاً؛ فلا يفر مذعوراً، ولا يبطش منتشياً، ولا ينسى أخلاقه تحت ضغط الدم.

(وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ).

حددت الآية مسار الانهيار بدقة: تنازع، ثم فشل، ثم ذهاب قوة.

لا تبدأ الهزيمة دائماً من ثغرة في السلاح؛ قد تبدأ من شرخ في الثقة. حين يصبح كل فرد مركزاً مستقلاً للقرار، وتتحول الآراء إلى خصومات، وتعلو الرغبة في الانتصار للنفس فوق الانتصار للقضية، تتبدد القوة وإن بقي العدد والسلاح.

(وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ).

الريح هي القوة والدولة والهيبة. والتعبير يصورها كطاقة تدفع السفينة؛ فإذا ذهبت بقي الهيكل في مكانه، كبيراً ربما، لكنه عاجز عن الحركة.

وقد تمتلك الأمة مؤسسات كثيرة، وجماهير واسعة، وموارد ضخمة، لكن ريحها تذهب حين تتنازع إراداتها. فالقوة ليست مجموع الإمكانيات فقط، وإنما قدرتها على الاتجاه نحو مقصد واحد.

ومع ذلك، لا يعني النهي عن التنازع إلغاء الاختلاف أو مصادرة المشورة. فالصحابة تشاوروا واختلفت آراؤهم، لكن الاختلاف كان طريقاً إلى القرار، لا بديلاً دائماً عنه. المذموم أن يتحول الرأي إلى هوية، وأن يرى صاحبه الرجوع عنه هزيمة شخصية، فيضحي بوحدة الصف ليحفظ صورة نفسه.

(وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ).

بعد الثبات والذكر والطاعة والوحدة يأتي الصبر جامعاً لها. فالثبات لحظة، أما الصبر فهو استمرار الثبات حين تطول اللحظة. والذكر قد يشرق في القلب، لكن الصبر يحفظ إشراقه من الانطفاء. والطاعة قد تبدأ قويةً، والصبر يمنعها من التراجع عند الكلفة.

ومعية الله للصابرين هي سر قدرتهم على تجاوز حدودهم المعتادة؛ معية نصره وتأييد وعناية تليق بجلاله سبحانه. ليس كمثلته شيء، وهو السميع البصير.

حين تخرج القوة لثرى

ثم تعرض السورة النقيض: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ).

خرج المؤمنون مضطرين إلى مواجهة لم يطلبوها أولاً، وخرجت قريش بطراً ورياءً. الصورة الخارجية واحدة: رجال وسلاح وطريق إلى بدر. لكن البواعث صنعت بين الخروجين مسافةً بين العبودية والكبر.

البطر ليس مجرد فرح، بل طغيان النعمة على صاحبها حتى تنسيه واهبها وحدودها. والرياء أن يصبح الناس قبلة الفعل؛

يتحرك المرء لكي يُرى، ويختار موقفه وفق الصورة التي يريد زرعها في أعينهم.

خرجت قريش لتسمع العرب بخروجها، ولتثبت أن هيبتها لم تُمس. لم تعد تقاتل دفاعاً عن القافلة بعد نجاتها، بل دفاعاً عن صورتها. وقد تدفع الجماعات أثماناً هائلةً لتجنب الاعتراف بالخطأ؛ لأن الرجوع في نظرها يجرح الهيبة، فتواصل الطريق إلى الهلاك لتحفظ مظهر القوة.

وحين تصبح السمعة هي القائد، يتوقف العقل عن مراجعة الاتجاه. يعرف الإنسان أن المصلحة في التراجع، لكنه يخشى كلام الناس، فيقدم مستقبله قرباناً لصورة عابرة في أذهانهم.

(وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ).

قد يخدعون الناس بمشهد القوة، لكنهم لا يحجبون بواطنهم عن الله. وهو محيط بفعلهم ودوافعهم وعواقبه؛ فلا يخرج مكرهم عن علمه، ولا تضل نتيجة عن حكمه.

وهكذا تضع سورة الأنفال قوتين متقابلتين:

قوةً تذكر الله، فتتحرر من غرورها.

وقوةً ترائي الناس، فتقع أسيرة صورتها.

قوةً تطيع، فتجتمع.

وقوةً تبطر، فتندفع إلى هلاكها.

قوةً تصبر، فتمتد.

وقوةً تستعرض، فتستهلك نفسها في المشهد.

لم تنتصر القلة يوم بدر لأنها لم تعرف الخوف، بل لأنها عرفت إلى أين تذهب بخوفها؛ ولم تنهزم الكثرة لقلة أدواتها، بل لأنها جعلت صورتها أمام الناس أعظم من حقيقتها أمام الله. وبين الذكر والرياء تقرر مصير جيشين: جيشٌ نسي حجمه فتذكر ربّه، وجيشٌ نسي ربّه فلم يرَ إلا حجمه.

الفصل السابع

الشيطان الذي يزين الطريق ثم يتبرأ عند نهايته

بعد أن نهت السورة المؤمنين عن الخروج بطراً ورياءً، كشفت القوة الخفية التي كانت تدفع قريشاً إلى مصيرها: (وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ).

لم يأمرهم الشيطان أولاً بعمل يروونه قبيحاً، بل زين لهم ما كانوا يفعلون. وهذه أخطر وظائفه: لا يخلق الهوى في النفس من عدم، وإنما يأخذ ميلاً موجوداً فيها، ثم يمنحه اسماً جميلاً وصورةً براقيةً.

الكبر يصبح دفاعاً عن الهيبة.

والعدوان يصبح حمايةً للمصالح.

والصد عن الحق يصبح وفاءً لميراث الآباء.

والإصرار على الخطأ يصبح ثباتاً لا يتراجع.

فالإنسان قلماً يقدم على الشر وهو يقول لنفسه: إنني أختار الشر. إنه يحتاج إلى رواية أخلاقية كاذبة تتيج له أن يفعل ما يريد وهو محتفظ بصورة طيبة عن نفسه. والشيطان بارع في صناعة هذه الرواية.

قال لهم: (لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ).

ضَحَّمْ أدواتهم حتى غابت عنهم حدودها. كانوا أكثر عددًا وأوفر سلاحًا، فحوّل الشيطان رجحان السبب إلى ضمان للنتيجة. وهذه هي اللحظة التي يتحول فيها السبب من نعمة تُستعمل إلى صنم يُعبد.

ثم قال: (وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ)؛ أي أنا حامٍ ومعين. والباطل يحتاج دائمًا إلى وعود أمان، لأن صاحبه يسمع في أعماقه صوتًا يحذره. فيأتيه الشيطان لا ليزيل الخطر، بل ليخدر إحساسه به.

لكنه حين رأى ما لم يروا، تبدلت لهجته: (فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ).

هكذا يفعل الشيطان: يشارك في صناعة القرار، ثم يغيب عند دفع الثمن. يزيّن البداية، ويتبرأ عند النهاية. يعد الإنسان أنه سيكون معه، فإذا أحاطت به العاقبة قال: أنت الذي اخترت.

(نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ).

صورة تختصر طبيعة التحالف مع الباطل. يبدو في أول الطريق رقيقًا واثقًا، فإذا جاءت ساعة الحقيقة كان أول

المنسحبين. فالشيطان لا يحب أتباعه؛ إنه يحب سقوطهم. وكل وعد يمنحه لهم ليس عقد حماية، بل طُعْمًا يقودهم إلى الحافة.

قال: (إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ). رأى الملائكة وعلامات المدد، فعلم أن المعركة ليست كما صوّرها لقريش. وهذا يكشف أن المعرفة وحدها لا تصنع هداية؛ فالشيطان يعرف من قدرة الله ما يجعله يخاف، لكنه لم يخضع. قد يبلغ الإنسان قدرًا من العلم، ثم يبقى قلبه متمردًا؛ لأن المشكلة في الإرادة لا في المعلومة.

(إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ).

إنه خوف لا يثمر توبةً ولا طاعة، وإنما يدفع صاحبه إلى الفرار من العقوبة وترك أتباعه. فالخوف النافع هو الذي يعيد القلب إلى الله، أما خوف الذي لا يغير الاتجاه فليس إلا إدراكًا متأخرًا للخطر.

حين ينظر مرضى القلوب إلى المؤمنين

(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ
بِئْسَ لَهُمْ).

رأوا المؤمنين يواجهون جيشًا يفوقهم عددًا وعدة، فلم يجدوا لتصرفهم تفسيرًا إلا الغرور. لأن القلب المريض يقيس

الشجاعة بميزان خوفه، ويرى كل تضحية لا يفهمها ضرباً من الحماقة.

من عاش أسيراً للحسابات المادية الخالصة لا يستطيع فهم قلب يتوكل على الله. يظن أن المؤمن لم ير الخطر، مع أن المؤمن قد يراه بوضوح أشد، لكنه يرى وراءه رباً لا يراه المنافق في حسابه.

قالوا: (غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ). جعلوا اليقين خداعاً، والتوكل وهماً، والثبات تهوراً. وهذه عادة النفوس العاجزة: بدل أن تعترف بسمو موقف لا تقدر عليه، تخفضه في التسمية حتى لا تشعر بصغرها أمامه.

لكن القرآن يجيبهم: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).

عزيز لا يُغلب، حكيم لا ينصر عباده عبثاً ولا يدبر أمورهم بلا غاية. واجتماع الاسمين يضبط معنى التوكل: فهو اعتماد على قوة لا تُقهر، مقرون بالرضا عن حكمة قد تختار طريقاً غير الذي تشتهي النفس.

ليس التوكل يقيناً بأن الأحداث ستقع على الصورة التي رسمتها، بل يقين بأنك لن تخرج من تدبير العزيز الحكيم. قد

يمنحك النصر العاجل، وقد يربيك بالصبر، وقد يفتح من هزيمة ظاهرة طريقاً لانتصار أبعد. أما أنت فمأمور بالصدق والعمل والثبات.

الوجه الآخر للمشهد

كان المؤمنون يرون في بدر نصراً وبشرى، لكن السورة تفتح نافذةً على ما كان يقع في الجانب الآخر عند الموت: **(وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ).**

إنها صورة شديدة؛ لأن لحظة الموت تزيل الزينة التي أحاطت بالباطل في الدنيا. أولئك الذين خرجوا بطراً ورياءً، ووقفوا أمام الناس في مشهد القوة، ينكشفون الآن في غاية العجز.

ضرب الوجوه إهانة لمن رفعوها كبراً، وضرب الأدبار جزاء لمن جعلوا حياتهم إعراضاً عن الحق. ثم يقال لهم: **(وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)؛** فالموت لم يكن نهاية القصة، بل بداية ظهور حقيقتها كاملة.

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ).

كل كلمة في الآية تحرس عدل الله.

(بِمَا قَدَّمْتُمْ أُنَادِيكُمْ) : لَمْ يُحْمَلُوا مَا لَمْ يَفْعَلُوا، بَلْ وَجَدُوا مَا أُرْسَلُوا أَمَامَهُمْ.

(لَيْسَ بِظَلَّامٍ) : لَا يَنْقُصُ حَسَنَةً، وَلَا يَزِيدُ سَيِّئَةً، وَلَا يَعَاقِبُ بِلَا حِجَّةٍ.

فالجزاء الأخروي ليس انفجار غضب بلا ميزان، بل ظهور للعدل بعدما أخفته موازين الدنيا. هناك تتجسد الأعمال التي حسب الإنسان أنها انتهت بانتهاء لحظتها، ويكتشف أنه كان يبني بقراراته مقامه القادم.

التاريخ لا يكرر أسماءه، بل يكرر سننه

(كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ).

تعيد السورة بدرًا إلى سياق التاريخ الطويل. ليست قریش أول قوة غرّها سلطانها، وليست الجماعة المؤمنة أول جماعة استضعفها الطغيان. قبلهم كان فرعون، وكان له ملك وجنود وخطاب يصنع الخوف، ثم مضت القوة وبقيت قصتها عبرة.

التاريخ لا يكرر التفاصيل، لكنه يكشف السنن. تتغير الأسماء، والأزياء، والأسلحة، وتبقى بنية الطغيان واحدة:

استعلاء، وتكذيب، وتسخير للمال والقوة، واستخفاف بالناس، ثم لحظة تنكشف فيها هشاشة البناء كله.

(فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ).

لم يأخذهم بقوتهم، بل بذنوبهم. فالقوة في ذاتها ليست جريمة؛ قد تكون أداة لإقامة العدل. لكن حين تتصل القوة بالكفر والظلم تتحول من نعمة إلى حجة على صاحبها.

(إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ).

قوة الطاغية محدودة بمكان وزمن وجنود، أما قوة الله فلا يحدها شيء. وإذا جاءت لحظة الأخذ لم تغن عن الظالم حصونه؛ لأن الذي أمهله هو نفسه الذي يأخذه، وليس إمهاله عجزاً ولا غفلة.

النعمة التي يغيرها الإنسان من داخله

ثم تقرر السورة قانوناً من أعظم قوانين الاجتماع الإنساني:

(نَلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).

النعم لا تزول عبثاً، ولا تتبدل أحوال الأمم بلا أسباب أخلاقية. قد يمنح الله قوماً أمناً ورزقاً ووحدةً ومكانة، ثم يغيرون ما في أنفسهم: يستبدلون الشكر بالبطر، والعدل بالظلم،

والأمانة بالخيانة، والاجتماع بالتنازع؛ فتبدأ النعمة تفقد أسباب بقائها.

التغير الخارجي يولد طويلاً في الداخل قبل أن تراه العيون. تسقط القيم أولاً، ثم تسقط المؤسسات. تفسد الضمائر، ثم تفسد الأسواق والسياسة والعلاقات. تضعف الأمانة في القلب، ثم يظهر الضعف في الدولة.

ولذلك قال: (حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ).

هناك تبدأ التحولات الكبرى: في تصور الإنسان للحق، وفي منزلته من المسؤولية، وفي مقدار ما يسمح به لنفسه من الظلم. قد تبقى القوانين مكتوبة، لكن النفوس إذا فقدت احترامها لم تعد الحروف وحدها قادرة على حماية المجتمع.

والآية تحمل عدلاً وتحذيراً وأملاً.

فيها عدل: لأن الله لا يسلب قوماً نعمتهم بلا سبب.

وفيها تحذير: لأن النعمة ليست حصانة أبدية إذا تغير أهلها.

وفيها أمل: لأن إصلاح الخارج يبدأ من موضع لا يستطيع الطغاة احتكاره؛ من النفس التي تعود إلى الحق وتعيد بناء قيمها.

لكن تغيير النفس ليس أمنيّات عاطفية. إنه مراجعة للأفكار التي بررت الانحراف، وللعادات التي جعلت الظلم مألوفاً، وللمصالح التي اشترت الصمت. هو أن تتغير معايير الاختيار، لا أن تتبدل الشعارات وحدها.

(وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).

يسمع ما تقول الأمة عن نفسها، ويعلم ما استقر في داخلها حقاً. قد ترفع شعارات الإصلاح، بينما تحرس في أعماقها أسباب الفساد. والله لا تخدعه اللغة حين تخالفها البواطن.

مأساة التكذيب المتكرر

(كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ).

تكرر ذكر آل فرعون، لكن في المرة الأولى جاء وصف الكفر بآيات الله، وهنا جاء التكذيب بآيات ربهم. وكأن التكرار يعرض وجهين للجريمة: رفض الحقيقة، ومقابلة عناية الرب بالبحر.

قال: (بِآيَاتِ رَبِّهِمْ)؛ فالذي أرسل إليهم الآيات هو ربهم الذي خلقهم ورباهم ورزقهم، ولم يكن غريباً يريد الانتقام منهم. جاءت الآيات لإنقاذهم، فجعلوها عدواً.

(فَأَمَّا كُنَّا لَهُمْ بِدُؤَيْهِمْ).

لم يكن البحر ظالمًا حين انطبق، بل كان آخر سطر في قصة كتب الطغيان فصولها. كل مظلوم أهين، وكل طفل دُبح، وكل حق جرى طمسه، كان قطرةً في البحر الأخلاقي الذي انتهى إلى إغراقهم.

(وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ).

تعددت الأقوام، واختلفت صور العقوبة، لكن الرابط كان الظلم. فالظلم هو الشق الذي تدخل منه عوامل الانهيار، وإن طال الزمن قبل أن يظهر.

شرُّ الدواب: حين يصبح نقض العهد طبيعةً

ثم تنتقل السورة من تاريخ الأمم إلى خطر يواجه الجماعة المسلمة في حاضرها: **(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ).**

ليست الآية في كل مخالف أو مسالم، بل تصف قومًا صار نقض العهد سلوكًا متكررًا: **(في كُلِّ مَرَّةٍ).** يعاهدون حين تكون لهم مصلحة في العهد، ثم ينقضونه حين يظنون أن الغدر أنفع.

والعهد هو الحاجز الذي يمنع العلاقات بين الجماعات من التحول إلى غابة. فإذا سقطت حرمة الكلمة، لم يعد ممكناً بناء أمن أو سلام. ولذلك كان الغدر المتكرر من شر الصفات؛ لأنه لا يهدم اتفاقاً واحداً، بل يهدم مبدأ الثقة نفسه.

(وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ).

فلو كان في قلوبهم خوف من الله، لمنعهم من الخيانة حين تغريهم الفرصة. لكن من لا يرى فوق قوته رقابةً علياً، قد يجعل قدرته معياراً للحق: ما أستطيع فعله فهو جائز، وما أعجز عنه أؤجله حتى أقدر.

وهنا تلتقي نهاية هذا المقطع ببدايته: الشيطان وعد قریش بالجوار ثم تبرأ منها، وهؤلاء يعاهدون ثم ينقضون. فالخيانة لغة واحدة في معسكر الباطل؛ وعدٌ عند الحاجة، وبراءة عند الكلفة.

أما الجماعة المؤمنة فلا يجوز أن تتعلم من خيانة أعدائها الخيانة. قوتها الأخلاقية جزء من رسالتها، والعهد الذي تعطيهِ ليس ورقةً تخضع لتقلب المصلحة، بل أمانةً يشهد الله عليها.

إن الشيطان لا يسوق أتباعه إلى الهلاك بالسلاسل؛ بل بالزينة والوعود. يجعلهم يرون العدوان بطولة، والكثرة ضماناً، والغدر

ذكاءً، ثم يتركهم في اللحظة التي تسقط فيها الأسماء المزيفة،
ويظهر كل فعل باسمه الحقيقي. وعندها يعرف الإنسان - ولكن
بعد فوات زمن الاختيار - أن أول خيانة تعرض لها كانت من
الصوت الذي أقنعه أن يخون.

الفصل الثامن

القوة التي تحرس السلام ولا تعبد الحرب

بعد أن وصفت السورة الذين ينقضون عهودهم في كل مرة، بيّنت كيف تتعامل الجماعة المؤمنة مع الغدر المتكرر؛ فلا تستسلم له باسم التسامح، ولا تنحدر إلى مستواه باسم الرد: **(فَإِمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدْ بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَنْكُرُونَ).**

الخطاب هنا في قومٍ ثبت غدرهم وصار نقض العهد عندهم عادة، ثم دخلوا في حالة حرب. عندئذ لا يكفي دفع خطرهم المباشر، بل ينبغي أن يكون الرد حازماً يردع من وراءهم عن سلوك الطريق نفسه.

فاللين مع الغدر المسلح لا ينتج سلاماً، بل قد يمنح الغادر ثقةً بأن نقضه بلا ثمن. والرحمة حين توضع في غير موضعها قد تتحول من فضيلةٍ إلى عون غير مقصود للظالم. لكن الآية تحدد غاية الحزم: **(لَعَلَّهُمْ يَنْكُرُونَ).**

ليست الغاية التلذذ بالانتقام، ولا تحويل القوة إلى آلة إذلال؛ وإنما صناعة ذاكرة ردع تمنع تكرار الخيانة. فالقوة في المنهج

القرآني لا تتحرك بلا مقصد أخلاقي، بل لتوقف عدوانًا وتحفظ عهدًا وتصون جماعةً من الاستئصال.

إن الردع رسالة إلى من يفكر في الغدر: إن للعهد حرمة، وإن كسره ليس لعبةً بلا عاقبة.

لا خيانة حتى مع الخوف من الخيانة

ثم تأتي قاعدة من أرفع قواعد الأخلاق السياسية: (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ).

لم تقل الآية: إذا خفت منهم الخيانة فخنهم قبل أن يخونوك. بل أمرت بإعلان انتهاء العهد إليهم بوضوح، حتى يصبح الطرفان على علمٍ متساوٍ بزواله.

(عَلَى سَوَاءٍ).

أي لا كمين أخلاقيًا، ولا طعنةً مستترة تحت وثيقة سلام، ولا استعمال للعهد غطاءً للاستعداد للغدر. إذا ظهرت أمارات معتبرة تدعو إلى خشية الخيانة، فلا تبق ساذجًا؛ ولكن لا تصبح خائنًا.

وهذه منزلة دقيقة بين الغفلة والغدر.

الغافل يترك أبوابه مفتوحةً لمن ظهرت خيانتته.

والخائن يستبق الاحتمال بجريمة.

أما المؤمن فيقرأ الواقع بحذر، ثم يتصرف بوضوح وعدل.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ).

جاء الحكم مطلقاً؛ فلا تصبح الخيانة محبوبَةً لأنها وُجِّهَتْ إلى خائن. أخلاق المؤمن لا يصوغها خصمه. وإذا نجح العدو في تحويلك إلى نسخة منه، فقد هزم رسالتك وإن لم يهزم جيشك.

قد يكسب الغدر معركةً عاجلة، لكنه يطعن المصدر الأعظم لقوة الأمة: ثقة الناس بكلمتها، وإيمان جنودها بعدالة قضيتها، وشعورها بأنها تتحرك تحت رقابة الله.

وهنا يربي القرآن جماعةً تستطيع أن تجمع بين اليقظة والنزاهة. فلا تحملها الثقة بالله على السذاجة، ولا يحملها الخوف على خيانة المبادئ.

لا يسبقون الله

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ).

قد يفر المجرم من ميدان، أو تنجح مؤامراته فترة، أو يفلت من عقوبة عاجلة، فيتوهم أنه سبق القدرة التي تطلبه. لكن

الإنسان لا يسبق الله؛ إنه ينتقل من مكان داخل ملكه إلى مكان داخل ملكه، ومن زمن تحت علمه إلى زمن تحت علمه.

(إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ).

لا تعني الآية أن الجزاء يقع دائماً فور الجريمة؛ بل تعني أن التأخير ليس عجزاً. قد يُمهلون لحكمة، أو ليزدادوا حجةً على أنفسهم، أو ليفتح لهم باب الرجوع، أو ليظهر أثر أفعالهم في التاريخ. لكنهم لا يخرجون من سلطان الله.

وهذا المعنى يحمي المؤمن من الاحتراق الداخلي حين يرى الباطل يفلت مؤقتاً. فالاستعجال قد يدفعه إلى اليأس أو التهور، أما اليقين بأنهم لا يعجزون الله فيمنحه صبراً لا يساوم على الحق ولا يعبد اللحظة.

إعداد القوة: عبادة الممكن

ثم تأتي الآية التي تبني العقل الاستراتيجي للجماعة المؤمنة: **(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ).**

لم يقل: انتظروا المدد. ولم يجعل إيمانهم بالملائكة عذراً لضعف الاستعداد. فالذي أنزل الملائكة في بدر هو نفسه الذي أمر بإعداد القوة بعدها.

التوكل لا يلغي القدرة البشرية، بل يستنفدها في الطاعة.

(مَا اسْتَطَعْتُمْ).

في العبارة واقعية ورحمة ومسؤولية. لم يطالبهم بما لا يملكون، لكنه لم يسمح لهم أن يتركوا شيئاً مما يستطيعون. فبين العجز الحقيقي والتقصير الذي يتكرر في لباس العجز مسافة يعرفها الضمير.

ليس المطلوب أن تملك الأمة كل قوة موجودة في العالم دفعةً واحدة، وإنما أن تبذل غاية وسعها في كل عصر. كان رباط الخيل من أبرز أدوات القوة يومئذ، ويدخل في عموم الأمر كل ما تتحقق به الحماية والردع: العلم، والصناعة، والاقتصاد، والتنظيم، والإعلام الصادق، وبناء الإنسان، ووحددة القرار.

فالقوة ليست قطعة سلاح فقط. قد تملك الأمة سلاحاً لا تحسن صناعته ولا صيانتته، فيظل قرارها مرتهاً لمن يمنحه ويمنعه. وقد تملك عددًا كبيراً، لكن الفساد ينخر مؤسساتها، فتبدو قوية في الصور وضعيفة عند الاختبار.

أول ميادين الإعداد عقل يعرف، وضمير يؤتمن، وإنسان لا يُباع.

وقدّمت الآية القوة نكرةً لتبقى واسعةً متجددة الصور. فلكل عصر رباط خيله؛ والأمة التي تقدس أداة الماضي بدل أن تفهم مقصدها قد تحافظ على شكل القوة بعد أن تفقد حقيقتها.

قوة غايتها ألا تقع الحرب

(تُرْهِيبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ).

المقصود إرهاب الردع: أن يرى المعتدي من استعداد الأمة ما يمنعه من التفكير في مهاجمتها. فالقوة هنا لا تُعد لإيذاء الأبرياء ولا لنشر الفوضى، بل لمنع العدو من استباحة الدماء والديار.

إنها قوة تريد أن تجعل كلفة الحرب مرتفعةً حتى لا تبدأ الحرب.

فالضعف لا يصنع السلام دائماً؛ قد يغري الطامع، ويوقظ شهية المعتدي، ويحول البلاد إلى أرض مفتوحة. أما القوة المنضبطة فقد تحقن الدماء بمجرد وجودها، لأن العدو يعيد حساباته قبل أن يخطو.

لكن الآية قالت: (عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)؛ فلم تترك تعريف العدو لأهواء العصبية الشخصية. ليس كل من خالفني عدوًّا لله، وليس من حق جماعة أن ترفع خصوماتها الخاصة إلى مرتبة الدين.

عداوة الله تُعرف بالوحي والعدوان على الحق، لا بانفعالات الأفراد.

ثم وسّعت الدائرة: **(وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ).**

ثمة أخطار ظاهرة، وأخرى كامنة لا تعرفها الجماعة. وقد يكون إعداد القوة سبباً في ردع عدو لم يُعلن نفسه بعد.

والآية تربي العقل على ألا يحصر استعداداته في التهديد القريب المعروف. فالتحولات قد تخرج أخطاراً من مواضع لم تكن في الحساب، ولا تحمي الأمة ردود الأفعال المؤقتة، بل بناء قدرة مستدامة.

(اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ).

ما أضيق علم الإنسان أمام شبكة المصالح والمخاوف الخفية! لكنه مأمور أن يُعد ما يستطيع، ثم يستند إلى علم الله فيما لا يستطيع الإحاطة به. وهنا يلتقي التخطيط بالتوكل مرةً أخرى: يعمل في دائرة المعلوم، ويفوض إلى الله ما وراءها.

الإنفاق الذي يعود إلى صاحبه

(وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ).

إعداد القوة يحتاج إلى مال، والمال موضع تعلق النفوس. لذلك يحرر القرآن صاحبه من وهم الفقد: ما تنفقه في سبيل الله لا يضيع؛ بل يعود إليك موفىً في الأجر، وقد يعود أثره في الدنيا أماناً وكرامةً وحمايةً للمجتمع.

إن بعض الأموال تُستهلك حين تُنفق، وبعضها يتحول إلى مستقبل. وما يُبذل لبناء الإنسان وحماية الأمة وإقامة العدل ليس خروجاً من الرصيد الحقيقي، بل انتقال من صورة عاجلة إلى قيمة أبقى.

(وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ).

لا يضيع عند الله جهد مجهول، ولا درهم صادق، ولا تضحية لم يصفق لها الناس. قد ينسى المجتمع أصحاب البذل، لكن الميزان الذي يحصي الذرة لا ينساهاهم.

اليد القوية حين تمتد إلى السلام

وبعد الأمر بإعداد القوة مباشرة يأتي الأمر بقبول السلم: **(وَإِنْ جَاحُوا لِلْسَّلَامِ فَأَجْزَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ).**

هذا هو التوازن القرآني المدهش: أعدوا القوة، ولكن لا تعبدوا الحرب. أرهبوا المعتدي، ولكن إذا مال إلى السلام ميلاً حقيقياً فلا تجعلوا القدرة ذريعة لاستمرار الدم.

(جَاحُوا).

في اللفظ صورة جناح يميل، وكأن السلم طائر يخفض جناحه بعد طول تحليق في عاصفة الحرب. فإذا ظهر ميل معتبر إليه، فليكن رد المؤمن ميلاً مثله، لا استعلاءً يستثمر ضعف الخصم لمزيد من الانتقام.

القوة التي لا تعرف متى تتوقف تتحول من حارس للحق إلى شهوة. وقد يبدأ القتال ضرورةً، ثم يصبح عند بعض النفوس مصدر مكانة ومكسب؛ فتخشى السلام لأنه ينزع عنها امتيازاتها. ولذلك احتاجت القوة إلى قلبٍ يتقي الله حتى يقاتل عند وجوب القتال، وكيف عند إمكان السلام.

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ).

السلام يحمل مخاطرة؛ فقد يكون الطرف الآخر صادقاً، وقد يخفي خداعاً. لكن احتمالات الخداع لا ينبغي أن تغلق كل باب للسلام. خذ بالأسباب، وراقب العهود، ثم توكل على الله.

التوكل هنا يحمي القائد من أسر الشك. فلو اشترط الإنسان معرفةً كاملةً بما في قلب خصمه، ما انعقد سلام قط. المطلوب تقدير العلامات الظاهرة بحكمة، ثم تفويض الغيب إلى من يعلمه.

(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

يسمع ما يعلنونه، ويعلم ما يخفونه. فلا يحتاج المؤمن أن يتخلى عن مبدئه خوفاً من سرائر لا يملكها؛ الله يتولى ما وراء الظاهر، وعلى الإنسان أن يلتزم العدل واليقظة.

إذا أرادوا أن يجعلوا السلام خدعة

(وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ).

لم تنف الآية إمكان الخداع، لكنها نفت أن يكون الخوف منه سيد الموقف. فإذا اتخذ المؤمن أسباب الحذر، ثم أخفى الآخرون نية الغدر، فالله كافيه.

(فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ).

الحسب هو الكفاية. يا لها من كلمة تملأ المسافة التي تعجز الحسابات عن تغطيتها! أنت لا تعلم كل شيء، ولا تملك كل شيء، ولا تستطيع منع كل احتمال؛ لكنك لست متروكاً داخل عجزك.

وليس معنى كفاية الله ترك وسائل الحماية؛ فالآيات نفسها أمرت بالإعداد. لكن هناك نقطة تنتهي عندها القدرة البشرية، ومن وراء تلك النقطة يبدأ مقام التفويض.

(هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ).

جمع الله للنبي ﷺ بين تأييد من عنده وتأييد بالمؤمنين. فنصر الله قد يأتي بمدد غيبي، وقد يأتي عبر بشر صادقين. ولا تعارض بين رؤية فضل الله وشكر الناس؛ فالمؤمنون أسباب كريمة سخرها الله لنصرة رسوله.

لكن أعجب صور التأييد لم تكن في كثرة العدد، بل في بناء الوحدة: **(وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ).**

لم يقل: جمع أجسادهم؛ فقد تجتمع الأجساد في مكان واحد وتكون القلوب في قارات متباعدة. التأليف أعمق من التنظيم؛

إنه أن تتجاوز القلوب أحقادها القديمة وتجد في الإيمان رابطة أقوى من عصبياتها.

كان الأوس والخزرج قد أنهكتهم الحروب، وكانت دماء الماضي حاضرة في الذاكرة. ثم دخل الإيمان بين القلوب، لا يمحو التاريخ من الوجود، بل لينزع منه سلطانه على المستقبل.

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِينَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ).

المال يستطيع جمع المصالح، لكنه لا يخلق المحبة. يستطيع أن يشتري اجتماعًا مؤقتًا حول مائدة، لكنه لا ينزع ثارات السنين من الصدور. فإذا انتهت المنفعة تفرقت القلوب التي جمعها الثمن.

أما العقيدة فجمعتهم حول معنى أكبر من ذواتهم. وحين يرى الإنسان أخاه شريكًا في العبودية والمصير، تضيق مساحة العصبية التي كانت تجعله خصمًا.

لكن التأليف الإلهي لا يعني أن الوحدة تقع بلا أسباب بشرية. لقد تربوا على العفو، والعدل، وضبط اللسان، والطاعة،

وإصلاح ذات البين. الله أَلَفَ القلوب، وهم استجابوا لتربية تحفظ هذا التأليف.

وكم من نعمة يؤلفها الله ثم يمزقها الناس بسوء أخلاقهم! فالوحدة هبة ومسؤولية في آن واحد.

(إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).

عزيز على أن يعجزه ما استحکم من خصومات، حكيم يضع التأليف في القلوب التي تنهياً له بالإيمان. فهو لا يجمعها على فراغ، بل على حق يحمل أسباب البقاء.

الكفاية التي تبني القيادة والصف

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).

حسب النبي ﷺ الله، وحسب المؤمنين الله. وهو الذي كفاهم بتأييده وبما سخره من أسباب وأنصار.

والآية تبني جماعتين داخل معنى واحد: قائداً يعرف أن كفايته بالله فلا يستعبد أتباعه، وأتباعاً يعرفون أن كفايتهم بالله فلا يؤلّهُون قائدهم. محبتهم للنبي ﷺ وطاعتهم له من طاعة الله، لكنه عبد الله ورسوله، لا تُنسب إليه خصائص الربوبية.

وحين تكون المرجعية لله، تتحرر القيادة من الغرور، والجماعة من التعلق المرضي بالأشخاص. تبقى للقيادة مكانتها وحقها، لكن القلب لا يمنح أحدًا مقامًا لا يكون إلا لله.

تحريض المؤمنين: إيقاظ المعنى لا إشعال الغضب
(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ).

التحريض إيقاظ الهمم وتذكير النفوس بما تقاتل لأجله. فالجسد قد يحمل السلاح، لكنه يحتاج إلى معنى يحمله هو. وإذا غابت الغاية صار القتال حركةً ثقيلة، أو تحول إلى اندفاع أعمى.

لم يكن التحريض دعوةً للكراهية المجردة، بل تثبيتًا لأناس يواجهون قوة تريد استئصالهم. يذكرهم بأنهم لا يقاتلون دفاعًا عن حياة أفرادهم فقط، بل عن حرية الإيمان وعن جماعة تحمل رسالة.

(إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ).

ليست المسألة حساب أجساد، بل حساب معانٍ. المؤمن الصابر يعرف لماذا يقف، وإلى أي غاية يمضي، وما وراء

الموت. أما من لا يفقه فقد يملك الأدوات، لكنه لا يحمل رؤيةً تمنح توضيحته معناها.

(بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ).

الفقه هنا ليس معلومات ذهنية، بل إدراك حقيقة المعركة والمصير. من ظن أن الحياة تنتهي عند جسده يقاتل وهو يحرس آخر ما يملك، أما من أيقن بالآخرة فلا يستطيع الموت ابتزازه بالطريقة نفسها.

لكن الله الذي شرع العزيمة يعلم ضعف البشر، فجاء التخفيف:

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ).
ليس الاعتراف بالضعف إهانةً للإنسان؛ بل رحمة به. فالشرعية لا تبني تكليفها على صورة خيالية لبشر لا يتعبون، وإنما تراعي واقع النفوس ودرجاتها.
(وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا).

علم لم يتبعه طرد من الصف، بل تخفيف. وما أرحم الفرق بين رب يعلم ضعفك فيعينك، وبشر يرون ضعفك فيحتقرونك!

ومع التخفيف بقي الصبر شرطًا، وبقيت الغلبة (بإِذْنِ اللَّهِ). لم تتحول الرحمة إلى إعفاء من المسؤولية، ولم يتحول الأخذ بالأسباب إلى استقلال عن الله.

(وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ).

في أول المقطع كانت القوة تُعد، وفي آخره الصبر يحفظها. فقد يمتلك الإنسان أداةً متقدمة، لكنه ينهار قبل أن يحسن استعمالها. القوة المادية توسع القدرة، أما الصبر فيمنحها زمن الفعل.

وهكذا تصوغ السورة معادلة السلام الحقيقية:

قوة تمنع العدوان.

ووفاء يحفظ العهود.

ويقظة تكشف الخيانة.

وتوكل يملأ مساحة المجهول.

وقلب يجنح إلى السلم إذا جنح إليه الآخر.

فالأمة المؤمنة لا تُعَدُّ القوة لأنها تحب الحرب، بل لأنها تعرف قيمة السلام؛ ولا تقبل السلام لأنها عاجزة، بل لأنها لا تجعل الدم غاية. فإذا اجتمعت القدرة والأخلاق، صار السلاح

حارسًا للإنسان لا سيدًا عليه، وصارت القوة بابًا لإغلاق
الحرب، لا ذريعةً لإبقائها مفتوحة.

الفصل التاسع

امتحان الرحمة حين تسبق الحسم

بعد أن أمرت السورة بإعداد القوة، وتحدثت عن الصبر والغلبة، انتقلت إلى واحدة من أدق قضايا بدر: الأسرى. وهي قضية لم تكن فقهاً عسكرياً فحسب، بل امتحاناً للقرار حين تتداخل الرحمة والمصلحة والمال البعيد: **(مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُخَنِّ فِي الْأَرْضِ).**

كان المسلمون ما يزالون في أول قيامهم، وقريش لم تفقد بعد قدرتها على جمع الجيوش ومحاولة استئصالهم. في هذا الظرف كان لا بد أن تُحسم المعركة ويكسر اندفاع القوة المحاربة قبل الانشغال بجمع الأسرى وما يترتب عليهم من فداء.

فالإثخان هنا قوة الحسم التي تمنع العدو من استعادة زمام الهجوم. وليس المعنى فتح باب الدم بلا ضابط، بل ألا تتقدم المنافع الآنية على ضرورة تأمين الجماعة والرسالة في ساعة المواجهة.

إن الرحمة فضيلة، لكنها تحتاج إلى بصيرة. فقد تكون الرحمة بفردٍ في لحظةٍ ما سبباً في تمكينه من إيذاء جماعة

كاملة إذا لم يتغير عدوانه. وقد يبدو الحزم قاسياً في مشهد قريب، بينما يكون هو الذي يمنع قسوة أكبر في المستقبل.

القرآن لا يرفض الرحمة؛ بل جاء النبي ﷺ رحمةً للعالمين. لكنه يربي الرحمة نفسها حتى لا تصبح انفعالاً منفصلاً عن الحكمة والعدل.

فالطبيب الرحيم قد يؤلم المريض بجراحةٍ تنقذه، بينما يتركه من يهرب من مشهد الألم لمرضٍ يهلكه. ليست الرحمة دائماً في أخف القرارات وقعاً على الحس، بل في أكثرها حفظاً للحياة والحق على المدى الأبعد.

حين يدخل عرض الدنيا إلى القرار

ثم جاء العتاب مباشراً: **(تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ).**

العَرَض هو الشيء الزائل الذي يعرض ثم يذهب. ومن بديع التعبير أن المال مهما بدا ثابتاً في اليد يظل عرضاً؛ لأنه لا يستقر لصاحبه، إما أن يتركه وإما أن يتركه المال.

كان في فداء الأسرى منفعة مالية يحتاج إليها المسلمون، وكانت النفوس تميل كذلك إلى استبقاء ذوي القرابة. وهذه دوافع

بشرية مفهومة، لكن لحظة تأسيس الرسالة لا يجوز أن يقودها الريح القريب إذا تعارض مع مقتضى الحسم.

(وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ).

أي يريد لكم ما يحقق مصلحة الدين والعاقبة الباقية، ويربيكم على ميزان لا يحاكم القرارات كلها إلى مكسب الساعة. إن الدنيا ترى الفداء مألًا حاضرًا، والآخرة تسأل: ماذا يصنع القرار بمصير الدعوة؟ الدنيا تنتظر إلى الثمرة القريبة، والآخرة تنتظر إلى سلامة الطريق كله.

ولا يعني إرادة الآخرة إهمال الدنيا؛ فالإسلام شرع تنظيم المال والقوة والسياسة. لكن الدنيا ينبغي أن تكون في خدمة الآخرة، لا أن تصبح الغاية التي يعاد تشكيل المبادئ لأجلها.

وكم تبدأ التحولات الخطيرة داخل المشاريع الكبرى من عبارة صغيرة: نحتاج إلى المال. ثم يتوسع الاحتياج حتى تتبدل المعايير، ويُقرب من يدفع، ويُبعد من يصدق، ويصبح بقاء المؤسسة أهم من بقاء رسالتها.

قد ينجو البناء ويضيع المعنى الذي بُني لأجله.

(وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).

عزيز لا يحتاج إلى الفداء ليقوي دينه، حكيم يعلم أي القرارات أصلح في لحظة التأسيس. وما يراه الإنسان مورداً لا غنى عنه قد يعوضه الله من أبواب لم تخطر له.

الكتاب السابق والفضل الذي منع العذاب

(لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ).

في الآية عتاب شديد، ومعه حماية سبقت وقوع الخطأ. كتاب من الله سبق، فمنع العذاب العظيم. واختلف المفسرون في المراد به، ومن أقوى ما قيل: ما سبق في علم الله وحكمه من إباحة الغنائم لهذه الأمة، وألا يعذب من اجتهد فأخطأ قبل تمام البيان.

والمهم في سياق التدبر أن الجماعة لم تنج لأنها كانت فوق المحاسبة، بل بفضل سبقها من الله. فقد يقع الخطأ من أهل الإيمان، ولا يتحول تاريخهم المجيد إلى عصمة. بدر نفسها، على جلال قدرها، لم تمنع نزول العتاب في شأن وقع خلالها.

وهذه من علامات صدق القرآن: لا يكتب تاريخ الجماعة المؤمنة كتاباً تمحو مواقع الضعف، ولا يجعل انتصارها غطاءً

يحجب المراجعة. النصر لا يمنع النقد، والفضل لا يلغي التقويم، والمكانة لا تسقط المسؤولية.

بل لعل الجماعة المنتصرة أشد حاجةً إلى العتاب؛ لأن نشوة النجاح قد تجعلها ترى كل اختياراتها صواباً. فيأتي الوحي ليفصل بين نصر القضية وصواب كل تصرف بشري يقع في خدمتها.

قد ينصر الله جماعةً رغم بعض أخطائها، لا بسبب تلك الأخطاء. ومن الخطر أن تحول النتيجة الحسنة إلى برهان على سلامة كل المقدمات؛ فقد يتدارك فضل الله تقصير البشر، ثم يظن البشر أن تقصيرهم كان حكمة.

الحلال الطيب بعد تصحيح القلب

ثم جاء الإذن: **(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).**

لم يكن المقصود تعذيب النفوس بالمال أو تحريم ما أحله الله. بعد أن استقام الميزان، أباح لهم ما غنموا.

وهذا من جمال التربية القرآنية: لا تحارب الفطرة، بل ترتبها. لا تقول للإنسان إن امتلاك المال نجاسة، وإنما تقول

له: لا تجعل المال يقود قرارك، ثم خذه حلالاً طيباً واشكر الله عليه.

(حَلَالًا طَيِّبًا).

الحلال يصف طريق الحصول، والطيب يشير إلى سلامة الأثر والمقصد. فقد يكون المال كثيراً، لكنه يدخل على القلب بالقلق والمهانة. أما الحلال فيحمل طمأنينةً لا تُشتري بمقداره.

ثم قال: (وَاتَّقُوا اللَّهَ)؛ لأن الإباحة لا تعني خروج المال من الرقابة الأخلاقية. حتى الحلال قد يتحول إلى فتنة إذا أورث البطر أو الشح أو التنافس. التقوى هي التي تجعل النعمة تمر في اليد من غير أن تستعبد القلب.

(إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

جاءت المغفرة بعد العتاب، والرحمة بعد كشف الخطأ. لا يريد القرآن أن يحبس المؤمن في إحساس الذنب، بل أن يعيده إلى الصواب ثم يفتح له باب السير.

التربية التي لا تعرف إلا التوبيخ قد تحطم الإنسان، والتربية التي لا تعرف إلا التبرير تفسده. أما الوحي فيكشف الخطأ بوضوح، ثم يمنح التائب أفقاً جديداً.

خطاب إلى الأسرى: الخير الذي قد يولد في قلب العدو

ثم يتجه الخطاب إلى الذين كانوا قبل ساعات يقاتلون النبي ﷺ: **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ).**

لم يختزلهم القرآن في وصف العداوة، ولم يغلق مستقبلهم بسبب ماضيهم. إنهم في الأسر، لكن قلوبهم ما تزال مساحةً مفتوحةً لاحتمال الخير.

(إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا).

الموازين البشرية ترى ظاهر الموقف: هؤلاء قاتلوا وأسروا وخسروا المال. أما الله فيعلم ما قد يستيقظ داخلهم بعد الصدمة. فقد تكون الهزيمة التي حسبوها نهاية مجدهم بداية هدايتهم.

كم من إنسان لم يسمع الحقيقة وهو قوي؛ لأن ضجيج مكانته كان يحجبها، فلما انكسر عنه ما كان يتكئ عليه سمعها لأول مرة! ليست كل هزيمة إبعادًا عن الله؛ قد تكون إزالةً للسور الذي حال بين القلب وبينه.

(يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ).

ما أخذته المعركة من أموالهم يمكن أن يعوضهم الله خيرًا منه. لكن الخير الأعظم هو أن يخرج الإنسان من أسر الكفر

إلى حرية الإيمان. فما قيمة فداء يسترد به جسده إذا بقي قلبه
أسيرًا لوهمه؟

ثم قال: (وَيَعْفِرْ لَكُمْ). لم يعرض عليهم تعويضًا دنيويًا
فحسب، بل عرض محو الماضي. أولئك الذين خرجوا لحرب
الرسالة يمكن أن يدخلوا فيها، لا في آخر الصف دائمًا، بل ربما
صاروا من خدامها وحماتها.

(وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

تكرر الاسمان ليعلم المؤمنون كيف ينظرون إلى خصومهم:
بالحزم الذي يمنع العدوان، وبالأمل الذي لا ينكر إمكان
التحول. لا سذاجة تنسى ما فعلوا، ولا قسوة تنكر أنهم بشر
يمكن أن يهتدوا.

وهذا التوازن هو الذي يصنع عدل الرسالة: تقيد اليد
المعتدية، لكنها لا تحكم بالإعدام الأبدي على القلب.

من خان الله قبل أن يخون البشر

(وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ).

فتح لهم باب الخير، لكنه لم يطلب من المؤمنين أن يغفلوا
عن احتمال الخيانة. الرحمة ليست إنكارًا لطبيعة الصراع،
وحسن الظن لا يعني إلغاء الحذر.

فإن أظهروا خيراً عوملوا بما يظهر، وإن أرادوا الخيانة فإن الله الذي كشف خيانتهم الأولى قادر على إبطال الثانية.

(فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ).

وخيانة الله ليست إلحاق ضرر به سبحانه، فهو الغني الذي لا تضره معصية، وإنما هي نقض ما تقتضيه فطرتهم وآياته وعهده إليهم؛ أعرضوا عن الحق الذي عرفوا دلائله، واستعملوا نعمه في محاربته.

(فَأَمَكَنَ مِنْهُمْ).

أي جعل المؤمنين قادرين عليهم يوم بدر. والعبارة تذكير بأن وقوعهم في الأسر لم يكن نتيجة تفوق بشري مستقل، بل تمكيناً من الله. فإن أعادوا الخيانة أعاد الله من التدبير ما يبطلها.

لكن المؤمن لا يتمنى خيانتهم ليؤكد سوء ظنه، بل يتمنى الخير ويستعد لاحتمال الشر. قلبه مفتوح للهداية، وعينه مفتوحة على الواقع.

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

يعلم من في قلبه خير، ومن يضمّر الخيانة، ولا يخفى عليه الفرق بين الضعف الصادق والمكر المستتر. وحكمته تضع

الرحمة في موضعها، والحزم في موضعه، والفرصة حيث تنفع، والعقوبة حيث لا يردع سواها.

وهكذا تعلمنا قضية الأسرى أن القرار الأخلاقي ليس اختياراً بسيطاً بين القسوة والرحمة. قد تتشابه الرحمة والضعف في الظاهر، كما يتشابه الحزم والانتقام؛ ولا يفرق بينهما إلا قلب متقٍ، وعقل يقرأ المآلات، وميزان لا يبيع الآخرة بعرض قريب.

إن الرحمة الحقيقية لا تنسى مصير الرسالة، والحزم الحق لا ينسى إنسانية الخصم. وبينهما يقف الوحي: يعاتب المؤمنين حين يستعجلون عرض الدنيا، ثم يخاطب أسراهم بلغة الرجاء؛ ليقول إن اليد التي يجب أن تُمنع من العدوان قد يكون وراءها قلب ينتظر لحظةً يولد فيها من جديد.

الفصل العاشر

من جماعة العقيدة إلى مجتمع الرسالة

بعد أن فرغت السورة من حديث الأسرى، انتقلت إلى رسم البنية التي تقوم عليها الجماعة المؤمنة. فالنصر لا يحميه السلاح وحده، وإنما تحميه شبكة من الولاء والنصرة والهجرة والعهد والمسؤولية: **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ).**

جمعت الآية صورتين صنعنا المجتمع الأول:

مهاجرين تركوا ما يملكون حفاظاً على عقيدتهم، وأنصاراً فتحوا لهم ما يملكون وفاءً بالعقيدة نفسها.

خرج المهاجر من داره ليحفظ إيمانه، وفتح الأنصاري داره ليحفظ أخاه. التقت تضحية الرحيل بكرم الاستقبال، فنشأ مجتمع لم تقم رابطته على الدم والأرض وحدهما، بل على المعنى الذي جعل الإنسان يرى آلام غيره جزءاً من أمانته.

(آمَنُوا وَهَاجِرُوا وَجَاهِدُوا).

لم يكن الإيمان فكرةً ساكنة. تحرك في الجسد هجرةً، وفي المال بذلاً، وفي الميدان جهاداً. والإيمان الذي لا ينشئ أثراً في خيارات الإنسان يبقى دعوى لم تمتحنها الطريق.

فالهجرة كانت لحظةً يُسأل فيها المؤمن: ما الذي لا تستطيع أن تعيش من دونه؟ أهو البيت، والقبيلة، والمال، أم الحق الذي منح كل هذه الأشياء معناها؟

لم يتركوا أوطانهم كراهيةً لها؛ فالنبي ﷺ أحب مكة. وإنما تركوها لأن حب المكان لا يجوز أن يتحول إلى قبر للعقيدة. وقد يخرج الإنسان من موطنه وفي قلبه شوق إليه، لكن قدمه تعرف أن وطن الروح هو حيث تستطيع أن تعبد الله بحرية.

ثم تأتي الصورة الأخرى: (وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا).

الإيواء سابق للنصرة في الذكر؛ لأن الإنسان يحتاج أولاً إلى مكان يشعر فيه أنه لم يعد مطارداً، ثم إلى قوة تحمي وجوده. لم يقدم الأنصار للمهاجرين سقفاً فحسب، بل أعادوهم إلى المجتمع بعد أن حاولت قريش اقتلاعهم منه.

الإيواء فعل حضاري عظيم؛ إنه أن توسع تعريف "نحن" حتى يدخل فيه من جاءك مثقلاً بخساراته. وأن تدرك أن

المستضعف لا يحتاج إلى طعام فقط، بل إلى كرامة تجعله شريكاً لا عبئاً، وإنساناً كاملاً لا رقماً في سجل الإحسان.

أما النصره فلم تكن عاطفةً رخوة. لقد تعهد الأنصار أن يحموا النبي ﷺ مما يحمون منه أنفسهم وأهلهم. انتقلت العقيدة عندهم من نور في القلب إلى تكلفة في الواقع.

(أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ).

الولاية هنا نصره وتكافل وقرب ومسؤولية. ليست كلمة وجدانية فقط، بل بنية اجتماعية وسياسية تحمي الجماعة الوليدة. إنهم لا يعيشون متجاورين فحسب؛ بل يحمل بعضهم بعضاً.

وقد كان اختلاف أصولهم يمكن أن يصنع شقوقاً كثيرة: مكّي ومدني، أوسي وخزرجي، غني وفقير، حر وعبد. لكن الإيمان لم يبلغ تنوعهم، بل منعه من التحول إلى سلمٍ للكرامة الإنسانية.

حين تصبح العقيدة حيّة، لا تسأل الإنسان أولاً: من أي قبيلة أنت؟ بل تسأل: ماذا تحمل من صدق، وماذا تؤدي من أمانة؟

إيمان لم تكتمل تبعاته بعد

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا).

كان من المؤمنين من بقي في مكة أو خارج دار الهجرة ولم يلتحق بالمجتمع المسلم، مع قدرته في السياق الذي نزلت فيه الآيات. أثبت القرآن لهم الإيمان، لكنه فرّق بين أصل الإيمان وبين الآثار التنظيمية الكاملة التي ترتبت على الهجرة.

وهذه دقة عظيمة: لا تنفي عن الإنسان كل فضله لأنه قصر في واجب، ولا تسوّي في الوقت نفسه بين من تحمل التكلفة ومن بقي خارجها.

هناك فرق بين التصديق بالقضية وبين الانتقال إلى موقع مسؤوليتها. قد يحب الإنسان الحق، لكنه يتردد في دفع ثمن الانتماء الكامل إليه. يظل قريباً منه بالقلب، بعيداً عنه بالموقف؛ فيحرم نفسه من بعض آثاره التي لا تنشأ إلا داخل الفعل. فالأفكار الكبرى لا تقاس بعدد المعجبين بها، بل بعدد الذين أعادوا ترتيب حياتهم وفقها.

ومع ذلك، لم يقطع القرآن الرابطة بهم: **(وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ).**

إذا تعرضوا للفتنة في دينهم وطلبوا النصر، وجبت نصرتهم؛ لأن رابطة الإيمان لم تسقط. غير أن هذه النصره ليست فوضى لا تراعي العهد: **(إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ).**

يا لسمو هذا القيد! حتى نصره المؤمن لا تبرر خيانة عهد قائم. فالعاطفة الأخوية لا تنقض العدالة، والغاية النبيلة لا تُحل الوسيلة المحرمة.

كان يمكن للانفعال أن يقول: هؤلاء إخواننا، وكل شيء يجوز لإنقاذهم. لكن القرآن يبني أمة لا تتغير أخلاقها تحت ضغط العاطفة. إذا كان بينكم وبين القوم ميثاق، فله حرمة، وتطلب النصره بسبل لا تنقض الكلمة.

وهكذا يحرر القرآن المؤمن من ازدواج المعايير. ليس الوفاء قيمةً يؤديها حين تكون مريحة، ثم يتركها حين تتزاحم مع مصلحة يحبها. العهد عهد حتى مع المختلف، والعدل عدل حتى حين يضغط الألم على القلب.

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ).

يرى ما تفعلون، ويرى كذلك الدافع الذي حملكم عليه. قد تتستر الخيانة بعباءة النصره، وقد يتستر الجبن بعباءة الوفاء؛ لكن الله يبصر الحدود الدقيقة بينهما.

ولاية الباطل

ثم تعرض السورة الجبهة المقابلة: **(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ).**

كما أن للحق روابط نصرة، فللباطل شبكات مصالح وتحالفات. قد يختلف أهله في العقائد والأهداف، لكنهم يلتقون حين يشعرون أن وجود الحق يهدد سلطانهم.

فليس الباطل دائماً أفراداً متفرقين؛ إنه يحسن تنظيم مصالحه، ويتجاوز خلافاته الجزئية إذا واجه خطراً مشتركاً. وربما كان أهل الباطل أكثر وعياً بمصالحهم من وعي أهل الحق برسالتهم.

ومن هنا لا يكفي أن يكون الحق صحيحاً في ذاته؛ لا بد أن يحمله مجتمع متماسك. الفكرة التي لا تجد رجالاً يتناصرون عليها قد تبقى جميلة في الكتب، بينما تتحرك المصالح المنظمة لتشكيل الواقع.

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ).

أي إن لم يقم المؤمنون بمقتضى الولاية والنصرة والتكافل وحفظ الجماعة، ظهرت الفتنة وانتشر الفساد. فال فراغ لا يبقى

فراغاً؛ إذا لم تنظّم قيم الحق وجودها، نظمت قوى الباطل مصالحها وملأت المساحة.

والفتنة لا تنشأ دائماً من قوة العدو وحدها، بل من تفكك أهل الحق. قد يكون خصمهم أضعف مما يظنون، لكن تنازعهم يمنحه قوةً إضافية. يبددون طاقتهم في صراعات الداخل، فيجد الباطل الطريق ممهّداً.

(وَفَسَادٌ كَبِيرٌ).

الفساد كبير؛ لأن أثر التفرق لا يقف عند الجماعة نفسها. حين يعجز أهل العدل عن التعاون، يدفع المجتمع كله الثمن. يعلو الظالم، ويضيع المستضعف، وتصبح القيم أصواتاً منفردةً لا تملك حماية أحد.

لكن الولاية الإيمانية لا تعني العصبية العمياء. لا ينصر المؤمن أخاه على الظلم، بل ينصره بمنعه منه. ولا يحول الجماعة إلى وثن يبرر أخطاءها؛ لأن الرابطة قامت أصلاً لخدمة الحق، فإذا انفصلت عنه تحولت إلى لون جديد من ألوان الجاهلية.

شهادة الإيمان الصادق

ثم تعود السورة لتثني على الفريقين: **(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا).**

في مطلع السورة قالت عن أهل الوجل والصلاة والتوكل والإنفاق: **(أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا).**

وفي خاتمتها قالتها عن أهل الهجرة والجهاد والإيواء والنصرة.

كأن السورة تجمع بين صورتين للإيمان الحق: إيمان في الداخل: قلب يوجل ويتوكل ويزداد بالآيات.

وإيمان في الخارج: قدم تهاجر، ويد تبذل، ونفس تجاهد، ودار تؤوي، وقوة تنصر.

لا يغني الباطن المزعوم عن العمل، ولا ينفع العمل إذا خلا من حياة القلب. المؤمن الحق ليس ناسكًا معزولاً عن آلام الجماعة، ولا ناشطاً تتحرك جوارحه بينما يجف قلبه. إنه إنسان اجتمع فيه المحراب والميدان.

(لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ).

بدأ الجزاء بالمغفرة قبل الرزق؛ لأن الإنسان مهما بذل يبقى محتاجًا إلى أن يستر الله نقصه. أعماله ليست ثمنًا يستغني به، وإنما أسباب يرجو معها فضل ربه.

أما الرزق الكريم فهو رزق لا تلحقه منة ولا كدورة ولا فناء؛ رزق في الدنيا بما يهيئ الله من الطيبات، ورزق في الآخرة يليق بكرم المنعم سبحانه.

ولم يقل: لهم نصر فقط. فقد ينتصر المؤمن في معركة ويموت قبل أن يرى الثمرة، لكن مغفرته ورزقه عند الله لا يضيعان. وهنا تتحرر التضحية من شرط النتيجة العاجلة؛ يعمل الإنسان لأن العمل حق، ويعلم أن الجزاء لا تحدده نشرات الدنيا.

أبواب الجماعة لا تُغلق بعد جيل التأسيس

(وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ).

لم تجعل السورة السابقين طبقةً مغلقةً تحتكر شرف الانتماء. نعم، للسابقين فضل لا يُنكر، لكن باب الجماعة يبقى مفتوحًا لمن يأتي بعدهم صادقًا في إيمانه وهجرته وجهاده.

(فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ).

كلمتان تصنعان وطنًا روحياً للوافد الجديد. ليسوا أتباعاً على هامش الجماعة، ولا أعضاء من درجة أدنى؛ بل منكم.

إن المجتمعات الحية تعرف كيف تحفظ فضل المؤسسين من غير أن تحوِّله إلى سلالة امتياز. فإذا صار السبق التاريخي أداةً لاحتكار المكانة، بدأت الرسالة تتحول من أمانة متجددة إلى ملكية عائلية أو طبقية.

الإسلام يكرم السابق، ويحتضن اللاحق، ويجعل الميزان هو الصدق والعمل. فرب متأخر في الزمن بلغ من الإخلاص مبلغاً عظيماً، ورب قريب من البدايات لم ينفعه قربه حين غاب عنه معناها.

وفي الآية كذلك إشارة إلى أن الأمة لا تكتمل مرةً واحدة ثم تتوقف. إنها تستقبل أمواجاً جديدة من المؤمنين، وعلى كل جيل أن يجد موضعه في حمل الرسالة. التاريخ يهب السابقين شرف البداية، لكنه يضع اللاحقين أمام أمانة الاستمرار.

الرحم وميزان الحقوق

ثم تختم السورة بترتيب رابطة القرابة في الأحكام: (وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ).

بعد أن بنت رابطة العقيدة، لم تلغ رابطة الرحم. فالإسلام لا يهدم الفطرة ليقيم المجتمع، بل يطهر الروابط من العصبية ويضع كل واحدة في موضعها.

العقيدة تحدد الولاء للحق والنصرة العامة، والرحم يحمل حقوق القرابة والميراث والرعاية. فلا يُستعمل الدين ذريعةً لإهمال الأهل، ولا تُستعمل القرابة ذريعةً لنصرة الباطل.

وهذا التوازن يمنع انحرافين: أن تتحول الأسرة إلى عصبية يتقدم عندها القريب ولو كان ظالمًا.

أو أن يُساء فهم الأخوة العامة حتى تضيع الحقوق الخاصة التي جعلها الله للأرحام.

فالعادل لا يساوي بين كل العلاقات في تفاصيل الواجبات، لكنه يمنح كل علاقة حقها من غير أن يسمح لها بابتلاع الحق الأكبر.

(فِي كِتَابِ اللَّهِ).

ليست الحقوق خاضعةً لمزاج القوة أو لحظة العاطفة، بل مثبتة في حكم الله. والمجتمع لا يستقر حين تتوزع الحقوق وفق القرب من أصحاب النفوذ؛ بل حين يرجع الجميع إلى ميزان فوق أهوائهم.

(إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

بهذه الجملة تنتهي السورة.

بدأت بسؤال عن الأنفال، وانتهت بعلم الله الشامل. وبين البداية والنهاية عالجت المال، والخوف، والقتال، والعهد، والسلم، والأسرى، والهجرة، والنصرة، والقرابة. وكل حكم فيها صادر عن يعلم الإنسان والحرب والمجتمع والمآلات.

يعلم لماذا يختلف الناس على المال.

ويعلم ما يمر بالقلب أمام كثرة العدو.

ويعلم من يضمّر الخيانة تحت ظاهر العهد.

ويعلم كيف تؤلف القلوب بعد العداوة.

ويعلم أين توضع الرحمة، ومتى يلزم الحزم.

ويعلم الحقوق التي تحفظ المجتمع من التفكك.

ولأن علمه كامل، كانت شريعته أبعد من انفعال اللحظة
وأحكم من نظر الإنسان المحدود.

خاتمة الرحلة

ليست سورة الحرب، بل سورة القلب الذي يحمل القوة

حين نعود إلى سورة الأنفال بعد هذا الإبحار، نجد أن بدرًا ليست مركز السورة الوحيد؛ بل القلب الإنساني وهو يدخل بدرًا ويخرج منها.

دخلها خائفًا، فعلمه الله التوكل.

ودخلها قليلًا، فعلمه أن العدد ليس ربًّا.

ودخلها يريد القافلة، فنقله الله إلى مقصد إحقاق الحق.

وخرج منها منتصرًا، فمنعه الله أن ينسب النصر إلى نفسه.

ورأى الغنيمة، فأعادها الوحي إلى ميزان الأمانة.

وأمسك بالأسرى، فعلمه ألا يبيع المآل بعرض الدنيا.

وامتلك القوة، فأمره الله أن يجنح للسلم إن جنح إليه عدوه.

وخشي الخيانة، فنهاه الله أن يخون.

واستقبل جماعةً جديدة، فعلمه الإيواء والنصرة.

إنها سورة تربي القوة حتى لا تفسد، والرحمة حتى لا تضعف، والحذر حتى لا يخون، والتوكل حتى لا يتحول إلى تواكل.

وتكشف أن أخطر الهزائم ليست دائماً أن ينكسر الجيش؛ بل أن ينتصر ثم تفسده الغنيمة، أو يملك القوة ثم يتشبه بعدوه، أو يحمي الأرض ويفقد المعنى الذي من أجله حماها.

لقد سُمّيت السورة بالأنفال، مع أن الغنائم ليست أكثر موضوعاتها، لأن السؤال عن المال كان الباب الذي دخل منه الوحي إلى أعماق النفس المنتصرة. فالمال بعد النصر يكشف: هل كانت المعركة لله، أم كانت كلمة "الله" غطاءً لرغبات تنتظر لحظة الظفر؟

ومن أول السورة إلى آخرها يتكرر درس واحد في صور كثيرة: لا تجعلوا شيئاً يحتل موضع الله في قلوبكم.

لا الغنيمة، ولا العدد، ولا السلاح، ولا الملائكة، ولا القائد، ولا الجماعة، ولا الأرض.

كلها أسباب ووسائل وأمانات؛ أما النصر فمن عند الله، والحكم لله، والمصير إليه.

وهذا هو الفرقان الذي لم يقع في أرض بدر وحدها؛ إنه يقع في كل قلب تتنازعه إرادتان: إرادة العرض القريب، وإرادة الآخرة. فإذا اختار الله، صار خوفه ثباتاً، وماله أمانةً، وقوته عدلاً، ونصره سجدةً لا منصّةً للغرور.

سورة الأنفال ليست نشيدًا يمجّد القوة المجردة، بل ميزانًا يضع القوة في يد الضمير المؤمن. إنها تقول: انتصروا، ولكن انتصروا أولاً على ما في أنفسكم؛ لأن عدوّاً تهزّمونه اليوم قد يعود غدًا، أما الهوى إذا جلس داخل رايتكم فسوف يقود انتصاراتكم كلها إلى الهزيمة.

وهكذا تنتهي السورة، ويبقى يوم بدر مفتوحًا في ضمير الأمة: ليس ذكرى لقلّة غلبت كثرةً فحسب، بل شاهدًا على أن الله قد يغيّر موازين الأرض حين تتغيّر القلوب، وأن النصر لا يولد ساعة النقاء الصفوف، وإنما يولد قبل ذلك بكثير؛ يوم يسمع القلب نداء الله لما يحييه، ثم يجيب بلا تردد: سمعنا وأطعنا.

ما بعد الرحلة بدر التي تتكرر داخل الإنسان

انتهت آيات السورة، لكن معانيها لم تنتهِ. فسورة الأنفال لا تترك القارئ عند أطراف بدر، ولا تسمح له أن يطوي الصفحة بوصفها خبرًا عن رجال عاشوا قبل قرون. إنها تنقل بدرًا من أرض الحجاز إلى أرض النفس؛ حيث تتكرر المعركة بأسماء أخرى، وتتجدد الأسئلة وإن تغيرت الوجوه.

ففي كل إنسان قافلة يريدُها، وبدرٌ يسوقه الله إليها.

يريد الطريق القريب قليل الكلفة، ويريد الله أن يخرجَه إلى تجربة تصنعه. يطلب رزقًا عاجلاً، ويفتح الله له باب مسؤولية. يتمنى أن تمر حياته آمنةً بلا امتحان، بينما تخفي له الحكمة الإلهية مواقف لن يعرف حقيقة نفسه إلا فيها.

والسؤال الذي تضعه السورة في قلبه ليس: هل تحب النصر؟
فكل إنسان يحب النصر.

بل تسأله: أي إنسان ستكون إذا انتصرت؟

هل تزداد تواضعًا لأنك رأيت فضل الله، أم تزداد انتفاخًا لأنك نسيت يد العناية؟

هل تجعل الغنيمة حقًا للضعفاء، أم تبني بها امتياز المنتصرين؟

هل تحفظ العهد حين تصبح قادرًا على نقضه، أم كان وفاؤك مجرد أخلاق عجز؟

هل تقبل السلام حين تملك مواصلة الحرب، أم تتحول القوة عندك إلى شهوة لا تريد أن تنتهي؟

هذه هي بدر الأصعب: بدر ما بعد بدر.

فالناس يتعاطفون مع المظلوم حين يكون ضعيفًا؛ لكن الامتحان يبدأ حين ينتصر المظلوم ويصبح قادرًا على أن يفعل بغيره ما فعل به. عندئذ يظهر هل كان يرفض الظلم لأنه ظلم، أم لأنه لم يكن صاحبه.

الهزيمة الأولى تقع في التصور

أظهرت السورة أن قريشًا هُزمت قبل أن تهزمها السيوف. هُزمت حين صدقت الصورة التي رسمها الكبر لها: **(لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ)**.

وحين تظن قوة ما أنها لا تُغلب، تكون قد أغلقت آخر نافذة للمراجعة. تصبح معلوماتها كلها خادمةً لغرورها، وينقل إليها

مستشاروها ما يرضيها، وتفسر كل تحذير بأنه جبن، وكل مراجعة بأنها خيانة.

لا تُهزم الإمبراطوريات يوم يسقط جنودها فقط، بل يوم تفقد القدرة على رؤية نفسها بصدق.

أما المؤمنون فقد انتصروا في داخلهم حين لم يعودوا ينظرون إلى أنفسهم بوصفهم وحدهم: **(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)**.

هذه الآية لا تضيف إلى عدد الجيش رجلاً واحداً، لكنها تغير معنى العدد كله. تخرج الإنسان من ضيق المقارنة بين إمكاناته وإمكانات خصمه، إلى سعة النظر في قدرة الله وتدبيره.

وذلك لا يعني أن يتخيل نفسه قوياً وهو مقصر في الإعداد، بل أن يعرف حقيقتين معاً:

أن ما يملكه من أسباب لا يكفي بذاته.

وأن ما ينقصه منها لا يعجز الله.

فيعمل لأنه مسؤول، ويطمئن لأنه عبد.

المعركة بين عينين

في بدر كانت هناك عين ترى المشركين كثيرًا، وقلب قد تزلزله الكثرة. فتدخلت العناية لتعيد الصورة إلى حجم يمكن للنفس أن تواجهه.

وهكذا يعيش الإنسان كثيرًا بين واقع الشيء وصورته في داخله. ربما لا يكون الخطر صغيرًا، لكن الخيال يضيف إليه أخطارًا لم تقع، ثم يجمعها كلها في لحظة واحدة، فينهار أمام مستقبل لم يصل.

الخوف يأخذ احتمالًا واحدًا، ثم يكتبه في النفس كأنه قدر نهائي.

أما السكينة فلا تتكرر الاحتمال، لكنها ترفض أن تمنحه منزلة اليقين. تقول للقلب: ما تراه ممكن، وليس كل ممكن واقعًا، وليس كل واقع هلاكًا، وليس كل مكروه خاليًا من اللطف.

ولهذا كان النعاس في بدر آيةً لا تقل دلالةً عن نزول الملائكة. فالملائكة مدد للصفوف، والنعاس مدد للأعصاب التي أنهكها الترقب. الله يعلم أن للجسد حقًا في صناعة الثبات، وأن القلب المتعب قد يحتاج إلى نوم قصير بقدر حاجته إلى موعظة طويلة.

إن السورة لا تربي أرواحًا تحلق بعيدًا عن طبيعتها البشرية، بل تربي بشرًا من لحم ودم: يخافون، وينعسون، ويحتاجون إلى الماء، وتنزل بهم القدم في الرمل، ثم تأتي العناية من خلال هذه التفاصيل نفسها.

المطر الذي لم يكن مجرد مطر

حين نزل الماء، لم يكن عنصرًا طبيعيًا صامتًا: **(لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ).**

قطرات قليلة اتصلت بأربعة عوالم: الجسد، والنفس، والقلب، والأرض.

وهذا يعلمنا ألا نحصر الطاف الله في الأحداث الخارقة. قد يأتي اللطف في شربة ماء، أو نوم هادئ، أو كلمة من رفيق، أو تأخير صرفك عن قرار خاطئ، أو معلومة وصلتكم في اللحظة المناسبة.

نحن ننتظر أحيانًا فتحًا صاخبًا، بينما يرسل الله إلينا نجاةً هادئة لا ننتبه إليها. لا يتغير العالم كله، لكن شيئًا صغيرًا يستقر في موضعه، فتتغير السلسلة كلها.

ولو أن المطر لم ينزل، لبقيت الأرض رخوةً تحت أقدامهم، وبقيت وساوس الطهارة تثقل نفوسهم. نزل الماء، فاستقرت الأرض والقلب معاً.

إن القدر لا يعمل دائماً بالجمال؛ قد يغيّر التاريخ بقطرة.

إصلاح ذات البين: الجبهة المنسية

افتتحت السورة النزول على النفس بالأمر: **(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ).**

ذلك لأن الجماعة قد تكون محصنةً من الخارج، ومفتوحة الثغرات من الداخل. تملك خطاباً قوياً في مواجهة خصومها، لكنها لا تملك كلمةً صادقةً تصلح بها علاقة أخوين.

وقد يسهل على الناس الاتفاق على عدو مشترك، ثم يعجزون عن الاتفاق على توزيع حق أو تحمل اختلاف. فإذا انتهى الخطر الخارجي ظهرت الأمراض التي كان صوته يحجبها.

وإصلاح ذات البين ليس نصيحةً اجتماعية لطيفة، بل جزء من أمن الأمة. لأن الحقد الصغير إذا تُرك، صار استعداداً لقبول الإشاعة. والظلم الداخلي إذا لم يُعالج، صار باباً يدخل منه العدو. والشخص الذي يشعر أن جماعته أهانته قد يبقى فيها بجسده، بينما انسحب قلبه منها منذ زمن.

لا تُبنى الوحدة بمطالبة المجروح أن يصمت دائماً؛ بل بإزالة الجرح ورد الحق والاعتذار الصادق. فالإصلاح ليس طلاءً يغطي الشق، وإنما معالجة للسبب الذي أحدثه.

ولهذا قُدِّم الأمر به قبل سرد تفاصيل المعركة. وكأن السورة تقول: قبل أن تسألوا عن قوة العدو، فتشوا عن المسافة بين قلوبكم.

الطاعة التي تمنع القوة من التفتت

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ).

لا تنهى الآية عن التفكير، بل عن التحول من اختلاف الرأي إلى تنازع الإرادات. هناك فرق بين عقليين يبحثان عن أفضل الطريق، ونفسين تتصارعان على من يملك الطريق.

الاختلاف الصحي يضيف إلى القرار زوايا جديدة، أما التنازع فيجعل كل طرف يتمنى فشل الآخر كي يثبت صوابه. وعندئذ تصبح الهزيمة الخارجية أقل خطراً من الرغبة الخفية في سقوط المشروع ما دام الخصم الداخلي يقوده.

وتذهب الريح قبل أن تسقط الراية. تذهب الثقة، ثم الحماسة، ثم القدرة على المبادرة. تبقى الأسماء والمكاتب والمنابر، لكن الروح التي كانت تحركها تغادر بصمت.

والأمة لا تستعيد ريحها بجمع الناس حول شخص لا يُراجع، بل بجمعهم حول مرجعية عادلة، وقرار شورى، وأمانة تجعل القائد خادماً للرسالة لا مالكا لها.

إعداد القوة يبدأ قبل شراء السلاح

حين قال الله: **(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)**،

لم يجعل القوة نوعاً واحداً. فرب أمة تحمل أحدث السلاح، لكنها لا تعرف ما تريد حمايته. ورب جيش قوي في الميدان تحيط به دولة هشة ينهشها الفساد.

القوة تبدأ من الإنسان الذي لا يبيع سره، والموظف الذي لا يسرق موقعه، والعالم الذي لا يزور معرفته للحاكم، والقاضي الذي لا يرتجف أمام النفوذ، والكاتب الذي لا يؤجر وعيه، والمربي الذي يبني في الطفل كرامة تمنعه غداً من أن يكون أداة.

إذا فسد الإنسان، تحولت القوة التقنية إلى جسد ضخم بعقل مستعار. يصبح سلاحه مرتهاً لمن صنعه، وقراره تابِعاً لمن يموله، ومعلوماته مكشوفة لمن اشترى ضمائر رجاله.

ولذلك سبقت التقوى إعداد القوة في بناء السورة. فالقدرة بلا تقوى قد تحمي الأمة من عدوها، لكنها لا تحميها من نفسها.

بين الخيانة والسذاجة

تضع السورة المؤمن في مقام بالغ الدقة: (وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ).

لا تكن غافلاً، ولا تكن غادراً.

لا تسلم أمنك لمن ظهرت أمارات خيانتته، ولا تجعل مجرد الشك ترخيصاً لخيانة عهده.

وهذه ليست قاعدة حرب فقط؛ بل ميزان في كل علاقة. للإنسان أن يحمي نفسه، وأن يراجع ثقته حين تظهر أسباب معتبرة، لكنه لا يملك أن ينتقم من احتمال، ولا أن يعاقب على ظن، ولا أن يخون حتى لا يُخان.

بعض الناس يبررون قسوتهم بتجاربهم السابقة، حتى يصبح كل جديد عندهم متهمًا بجريرة القديم. وهكذا لا يحمون أنفسهم من الخيانة فحسب، بل يمنعون عنها إمكان الثقة والحياة.

أما القرآن فيعلمنا حذرًا لا يفسد القلب، وعدلاً لا يلغي البصيرة.

الإيمان الذي يقاس بما تركه الإنسان لأجله

في آخر السورة لا تُعرّف الجماعة بأقوالها، بل بأفعال ثقيلة:
(آمَنُوا وَهَاجِرُوا وَجَاهَدُوا).

الهجرة تكشف ما استطاع الإيمان أن يحرر الإنسان منه. فكل مؤمن له هجرته المعنوية، وإن انقضى حكم الهجرة المكانية الخاصة من مكة بعد الفتح: هجرة من عادة تهينه، ومن صحبة تفسد قلبه، ومن مال يلوث كرامته، ومن هوى يمنعه من الاستجابة.

ليس السؤال: ماذا أحببت من الحق؟ بل: ماذا تركت من أجله؟

فالحقيقة التي لا تستطيع أن تحركك من مكانك الداخلي لم تصبح بعد حقيقةً حاكمةً في حياتك. قد تكون فكرةً تعجبك، أو عبارةً تحسن ترديدها، لكنها لم تبلغ مقام القيادة.

والمهاجر لا يترك شيئاً ليفقده فقط، بل يتركه ليجد فضاءً أوسع للعبودية. إنه لا يعبد الحرمان، وإنما يختار ألا يكون ما يملكه قيّدًا يمنعه من الله.

الأنصار: هندسة الإيواء

وفي مقابل الهجرة جاء الإيواء: **(وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا)**.

ليس كل الناس مطالبين بالرحيل؛ بعضهم يُختبر في فتح الأبواب للراجلين. وقد تكون بطولة المقيم أن يفتتح من أمنه لمن فقد الأمن، ومن رزقه لمن ترك الرزق، ومن مكانه لمن أخرج من مكانه.

الإيواء ليس شفقةً من الأعلى إلى الأسفل. الأنصاري لم ينظر إلى المهاجر باعتباره متسولاً جاء ينتظر فضله؛ بل أخاً سبقه في الإيمان والتضحية، وجاء يحمل من الرسالة ما يغني المدينة كلها.

وهذا هو الإيواء الذي يحفظ كرامة الإنسان: لا يذكره كل يوم بأنه غريب، ولا يحوله إلى تابع، بل يمنحه فرصةً ليشترك في البناء.

وقد تؤوي الأجساد البيوت، وتبقى الأرواح بلا مأوى. يحتاج الغريب إلى كلمة تقول له: أنت منا. يحتاج المجروح إلى مساحة لا يُجبر فيها على شرح ألمه كل مرة. يحتاج المنكسر إلى من يعامله بوصفه قادرًا على النهوض، لا مشروع ضعف دائم.

لهذا جاءت كلمة السورة الأخيرة في بناء الجماعة: **(فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ)**.

ليسوا حولكم.

ولا تحتكم.

بل منكم.

السؤال الذي تتركه السورة مفتوحاً

بعد كل هذه المشاهد، تقف سورة الأنفال أمام القارئ وتسأله:

إذا جاءتك غنيمتك، فهل تصلح ذات البين أم تنازع؟

إذا رأيت عدوك كثيراً، فهل يملأ عينيك حتى يحجب الله عن

قلبك؟

إذا امتلكت القوة، فهل تحفظ بها العهد أم تستخدمها لتبرير

الغدر؟

إذا دعاك الخصم إلى سلم صادق، فهل تعرف كيف توقف

سيفك؟

إذا أخطأت بعد نصر، فهل تقبل العتاب أم تجعل نجاحك دليل

عصمتك؟

إذا جاءك المهاجر خالي اليدين، فهل ترى فقره أم ترى
المعنى الذي هاجر لأجله؟

إذا نصرت قضيةً عادلة، فهل تبقى القضية أكبر منك، أم
تتحول عند أول ظفر إلى سلّم لمجدك الشخصي؟

هذه هي الأسئلة التي تجعل سورة الأنفال سورةً حية. فبدر
التاريخية وقعت مرة، لكن بدر القلوب تقع كل يوم. وفي كل
مرة يقف الإنسان بين غير يريدّها وحقّ يريدّه الله منه، وبين
عرض الدنيا ومقصد الآخرة، وبين صورة نفسه أمام الناس
وحقيقته أمام الله.

وقد لا يسمع صليلاً ولا يرى غباراً، لكن المعركة كاملة تقع
في صدره.

هناك يزيّن الشيطان.

وهناك ينزل الفرقان.

وهناك تتنازع الإرادتان.

وهناك يُعرف لمن تكون الأنفال.

فإذا انتصر القلب لله، هانت بعد ذلك معارك الأرض؛ وإذا
خسر القلب نفسه، لم تنفعه رايات النصر ولو ملأت الأفق.